

جميع الحقوق محفوظة للناسر
الطبعة الأولى ٨٨ / ٨ / ٣٠٠٠

الأهالي

للطباعة والنشر والتوزيع

حشق هاتف: ٤٢٠٢٩٩ ص.ب ٩٥٠٣ تلکس ٤١٢٤١٦

غابرييل غارسيا ماركيز

**كيف تُكتب الرواية؟
ومقالات أخرى**

ترجمة

صالح علماني

حسناً، فلتتحدث في الأدب

في مقابلة صحفية قديمة، قال خورخي لويس بورخيس أن مشكلة الكتاب الشباب في ذلك الحين كانت في أنهم يفكرون وهم يكتبون بالنجاح أو الفشل. في حين لم يكن يفكر في بداياته إلا بالكتابة لنفسه. ويروي قائلاً: «عندما نشرت كتابي الأول عام ١٩٣٢، طبعت منه ثلاثمئة نسخة وزعتها على أصدقائي، ما عدا مئة نسخة منها حملتها إلى مجلة «نوسوتروس» فنظر أحد مدراء المجلة، وهو الفريدو بيانتشي، إليّ مذعوراً وقال: «وهل تريدني أن أبيع كل هذه الكتب؟» فرد عليه بورخيس: «لا طبعاً. فرغم إني كتبتها، غير اني لست مجنوناً». والحقيقة ان الصحفي الذي أجرى المقابلة، الكيس خ. زيسمان، الذي كان في ذلك الحين طالباً من البير ويدرس في لندن، روى على هامش تلك المقابلة ان بورخيس قد اقترح على بيانتشي ان يدس نسخاً من الكتاب في جيوب المعاطف التي يعلقها المحررون على المشاجب في مكاتبهم، عسى أن يتيح ذلك نشر بعض الملاحظات النقدية حوله.

أثناء تفكيري بهذه الحادثة، تذكرت حادثة أخرى ربما تكون معروفة، وذلك حين التقت زوجة الكاتب الأميركي الشهير شيروود اندرسون مع الشاب وليم فوكنر وهو يكتب بقلم رصاص ويسند أوراقه على عربة قديمة. فسألته: «ماذا تكتب؟» فرد عليها دون أن يرفع رأسه: «رواية». ولم تستطع السيدة اندرسون إلا أن تهتف: «رباه!». ومع ذلك، فقد بعث شيروود اندرسون بعد

عدة أيام إلى الشاب فوكنر يقول إنه مستعد لتقديم روايته إلى ناشر، وشرطه الوحيد هو ألا يكون مضطراً لقراءتها. كان ذلك الكتاب هو Soldiers Pay ، الذي نُشر عام ١٩٢٦ - أي بعد ثلاث سنوات من نشر كتاب بورخيس الأول - وكان فوكنر قد نشر أربعة كتب أخرى قبل أن يصبح كاتباً معروفاً، يوافق الناشرون على طبع كتبه دون مزيد من اللف والدوران. ولقد صرح فوكنر ذاته يوماً أنه بعد هذه الكتب الخمسة الأولى، وجد نفسه مضطراً لكتابة رواية إثارية، لأن الروايات السابقة لم تؤمن له من النقود ما يكفي لإطعام أسرته. وقد كان هذا الكتاب الاضطرابي هو «الحرم» Sanctuary ، والإشارة إلى الكتاب جديدة بالذكر، لأنها تُظهر بجلاء الفكرة التي كان يحملها فوكنر عن رواية الإثارة.

لقد تذكرت هذه الأحداث عن بدايات عظماء الكتاب خلال حوار دامت نحو أربع ساعات، أجرته مع رون شيرد، أحد المحررين الأدبيين في مجلة «تايم» والذي يعد دراسة حول الأدب الأميركي اللاتيني. ثمة أمران اثنان جعلاني أشعر بالرضى عن هذه المقابلة. الأمر الأول هو أن شيرد لم يحدثني ولم يجعلني أتحدث إلا عن الأدب. وأثبت دون أي أثر للحدقة أنه يعرف جيداً ما هو الأدب. والأمر الثاني هو أنه قرأ بتمعن شديد جميع كتبي، ودرسها جيداً، ليس كل كتاب منها على حدة وحسب، وإنما كذلك في تسلسلها وفي مجموعها. كما أنه تجشم عناء قراءة عدة مقابلات أجريت معي كي يتفادى توجيه الاسئلة التي توجه إليّ دائماً. ولم تثر هذه النقطة الأخيرة اهتمامي كثيراً، ليس لأنها تتملق غروري - وهو أمر لا يمكن، ولا يجب استبعاده على أي حال عند الحديث مع أي كاتب، بما في ذلك أولئك الكتاب الذين يبدوون متواضعين - وإنما لأنها أتاحت لي أن أبين بشكل أفضل، ومن خلال تجربتي، مفاهيمي الشخصية عن مهنة الكتابة. فكل كاتب أثناء أي مقابلة معه - ومن خلال ادنى هفوة - يدرك إن كان من يقابله قد قرأ الكتاب الذي يحدثه عنه. ومنذ هذه اللحظة، وربما دون أن ينتبه الآخر إلى ذلك، يضعه الكاتب في منزلة معيبة وينظر إليه باستخفاف. واحتفظ أنا بذكرى

مرحة جداً عن صحفي اسباني شاب، أجرى معي حواراً مفصلاً عن حياتي وفي اعتقاده أنني مؤلف أغنية الفراشات الصفراء، التي كانت شائعة في ذلك الحين، دون أن تكون لديه أدنى فكرة عن أن تلك الموسيقى مستوحاة من كتاب، وأنني أنا مؤلف ذلك الكتاب.

لم يوجه شيرد إلي أي سؤال شخصي، ولم يستخدم آلة تسجيل، وإنما كان يكتفي بين الحين والآخر بتسجيل بعض الملاحظات المقتضبة على دفتر مدرسي. ولم يبد اهتماماً بالجوائز التي مُنحت لي سابقاً أو الآن، ولم يحاول أن يعرف مني ما هو التزام الكاتب، ولا عدد النسخ التي بعثها من كتبي، ولا مبلغ الأموال التي جنيتها. لن أقدم الآن ملخصاً لحوارنا، لأن كل ما قلناه أثناء الحوار هو ملك له الآن وليس لي. لكنني لم أستطع مقاومة اغراء الإشارة إلى الحدث كواقعه مشجعة في مجرى حياتي الخاصة المضطربة اليوم، حيث لا أكاد أعمل شيئاً سوى الاجابة عدة مرات في اليوم على الأسئلة الدائمة ذاتها، والأسوأ أنها ذات الأسئلة التي تصبح علاقتها أقل يوماً بعد يوم بمهنتي ككاتب. أما شيرد، فقد كان يتحرك، بالبساطة التي يتنفس بها، دون أن يصطدم بأشد أسرار الإبداع الأدبي زخماً. وعندما ودعني، تركني مضمخاً بالحنين إلى ذلك الزمان الذي كانت فيه الحياة أكثر بساطة، وكان المرء يستمتع بلذة اضاعة ساعات وساعات للحديث في الأدب وحسب.

ومع ذلك، لم يرسخ شيء مما قلناه في ذهني كرسوخ عبارة بورخيس: «الكتاب يفكرون الآن بالفشل أو النجاح». ولقد قلت هذا الكلام بطريقة أو بأخرى لعدد كبير من الكتاب الشباب الذين ألتقي بهم في هذا العالم. ولحسن الحظ اني لم أرهم جميعاً يسعون إلى انهاء رواية كيفما اتفق ليقدموها في الموعد المحدد لمسابقة ما. ورأيتهم يسقطون في مهاوي القنوط بسبب نقد مضاد أولرفض مخطوطاتهم في دار نشر. لقد سمعت ماريو بارغاس يوسا يقول يوماً: «في اللحظة التي يجلس فيها أي كاتب ليكتب، فإنه يقرر إن كان سيصبح كاتباً جيداً أم كاتباً

رديثاً». ومع ذلك ، فقد جاء إلى بيتي بمدينة مكسيكو بعد عدة سنوات من ذلك شاب في الثالثة والعشرين من العمر، كان قد نشر روايته الأولى قبل ستة شهور، وكان يشعر بالنصر في تلك الليلة لأنه سلم لتوه مخطوط روايته الثانية إلى ناشر. أبديت له حيرتي لتسرع وهو ما يزال في بداية الطريق ، فرد عليّ باستهتار لا زلت أرغب في تذكره على أنه استهتار لا ارادي : «أنت عليك أن تفكر كثيراً قبل أن تكتب لأن العالم بأسره ينتظر ما ستكتبه، أما أنا فأستطيع أن أكتب بسرعة ، لأن قلة من الناس يقرؤوني». عندئذ ، وبإحياء مبهر، فهمت مغزى عبارة بارغاس يوسا: فذلك الشاب قرر سلفاً أن يكون كاتباً رديثاً، كما كان في الواقع ، إلى أن حصل على وظيفة جيدة في مؤسسة لبيع السيارات المستعملة ، ولم يعد بعدها إلى إضاعة وقته في الكتابة . ومع ذلك ، أفكر الآن بأن مصيره ربما كان قد تبدل لو أنه تعلم الحديث في الأدب قبل أن يتعلم الكتابة . فهناك هذه الأيام عبارة شائعة تقول : «نريد قليلاً من الأعمال وكثيراً من الأقوال» . وهي عبارة مشحونة طبعاً بخيانة سياسية عظمتي . ولكنها صالحة للأدب أيضاً .

لقد قلت منذ شهور عديدة لجومي غارسيا اكوست ان الشيء الوحيد الذي يفوق الموسيقى هو الحديث عن الموسيقى ، وفي الليلة الماضية ، كنت على وشك أن أقول الكلام ذاته عن الأدب . لكنني ترويت قليلاً ، فالواقع أن الشيء الوحيد الذي يفوق الحديث في الأدب هو صناعة الأدب الجيد .

كيف تُكتب الرواية؟

هذا هودون شك أحد الأسئلة التي كثيراً ما توجه إلى الروائي . ولدى المرء دوماً إجابة مرضية ، تناسب من يوجه السؤال . لكن الأمر أبعد من ذلك : فمن المجدي محاولة الإجابة عنه ، لا لمتعة التنويع وحسب ، كما يقال ، وإنما لأنه يمكن الوصول من خلاله إلى الحقيقة . ولأن هناك أمراً مؤكداً على ما أظن ، وهو أن أكثر من يسألون أنفسهم كيف تُكتب الرواية ، هم الروائيون بالذات . ونحن نقدم لأنفسنا أيضاً إجابة مختلفة في كل مرة .

وأنا أعني بالطبع الكتاب الذين يؤمنون أن الأدب هو فن موجه لتحسين العالم . أما الآخرون ، ممن يرون أنه فن مكرس لتحسين حساباتهم المصرفية ، فلديهم معادلات للكتابة ليست صائبة وحسب ، بل ويمكن حلها بدقة متناهية وكأنها معادلات رياضية . والناشرون يعرفون ذلك . فقد كان أحدهم يتسلى منذ وقت قريب موضحاً لي سهولة الطريقة التي تكسب بها داره للنشر الجائزة الوطنية للأدب : لا بد قبل كل شيء من دراسة أعضاء لجنة التحكيم ، من خلال تاريخهم الشخصي ، وأعمالهم ، وذوقهم الأدبي . ويرى الناشر أن محصلة جميع هذه العناصر توصله إلى حد وسطي لذوق لجنة التحكيم الأدبي . ويقول : « لهذا وجدت الحاسبات الالكترونية » . وبعد الوصول إلى نوع الكتاب الذي يتمتع بأكبر الاحتمالات للفوز بالجائزة ، يتوجب التصرف بطريقة معاكسة لما يجري في الحياة : فبدلاً من البحث أين هو هذا الكتاب ، يجري البحث عن هو الكاتب ،

سواء أكان جيداً أم رديئاً، المؤهل أكثر من سواء لفبركته . وما سوى ذلك ليس إلا التوقيع على عقد معه ليجلس ويكتب المواصفات المحددة، الكتاب الذي سيفوز في السنة التالية بالجائزة الوطنية للأداب . والمخيف في الأمر هو أن الناشر قد أخضع هذه اللعبة لمطحنة الحاسبات الالكترونية، وأعطته الحاسبات ان احتمال النجاح هو سبعة وثمانون بالمئة .

المسألة ليست إذن في كتابة رواية - أو قصة قصيرة - وإنما في كتابتها بجدية، حتى ولو لم تُبع فيما بعد ولم تنل أية جائزة . هذه هي الإجابة التي لا وجود لها، وإذا كان هناك من يملك الأسباب لمعرفة ذلك في هذه الأيام، فهو من يكتب الآن هذه السطور محاولاً من أعماقه إيجاد حله الخاص للأحجية . فقد عدت مؤخراً إلى مكتبي في مكسيكو، حيث تركت منذ سنة كاملة عدداً من القصص القصيرة غير المكتملة ورواية كنت قد بدأت بكتابتها وأحسست اني لم أجد طرف الخيط كي تكرر اللفافة . بالنسبة للقصص القصيرة، لم أجد أية مشكلة : لقد صارت إلى سلة المهملات . فبعد قراءتها اثر سنة من الغياب الصحي، أتجراً على أن أقسم - وربما كنت محقاً - بأنني لست كاتبها . إنها تشكل جزءاً من مشروع قديم يتألف من ستين قصة قصيرة أو أكثر تتناول حياة الأميركيين اللاتينيين في أوروبا، وكان عيب هذه القصص الأساسي والسبب في تمزيقها هو أنني أنا نفسي لم أقنع بها .

ليس لدي من التبجح ما يجعلني أقول أن يدي لم ترتعش حين مزقتها، ثم حين بعثرت القصصات لأحول دون جمعها إلى بعضها بعضاً من جديد . لقد ارتعشت، ولم تكن يداي وحدهما هما اللتان ارتعشتا، لأنني أحفظ لعملية تمزيق الأوراق هذه بذكري قد تكون مشجعة، لكنها تبدولي مكربة . انها ذكرى ترجع إلى ليلة حزيرانية من عام ١٩٥٥، عشية سفري إلى أوروبا كموفد خاص من صحيفة الاسبيكتادور، حين جاء الشاعر خورخي غيتان دوران إلى غرفتي في بوغوتا ليطلب مني أن أترك له شيئاً ينشره في مجلة ميتو . كنت قد انتهيت من مراجعة أوراقى، فوضعت في مكان أمين ما رأيت أنه جدير بالحفظ، ومزقت ما هو ميؤوس

منه . بدأ غيتان دوران بالبحث في سلة المهملات عن الأوراق الممزقة ، بنهمه الذي لا يرتوي نحو الأدب ، وخصوصاً نحو امكانية اكتشاف قيم مغمورة . وفجأة وجد شيئاً لفت انتباهه ، فقال لي : « لكن هذا صالح جداً للنشر » . فأوضحت له لماذا مزقته : إنه فصل كامل انتزعت من روايتي الأولى عاصفة الأوراق - وكانت الرواية قد نُشرت في ذلك الحين - ولا يمكن له أن يلقي مصيراً مشرفاً إلا في سلة المهملات . لم يتفق غيتان دوران مع وجهة نظري . ورأى ان النص قد يكون فائضاً عن الحاجة في مسار الرواية ، ولكن له قيمة مختلفة بذاته . فخولته - ليس لقناعتي بوجهة نظره بقدر ما كان ذلك لارضائه - صلاحية ترقيع الأوراق الممزقة بشريط لاصق ، ونشر الفصل على انه قصة قصيرة . « وأي عناوين نضع له ؟ » ، سألني مستخدماً صيغة جمع قلما كانت دقيقة كما هي في تلك الحالة . فقلت له : « لست أدري ، فهذا لم يكن سوى مونولوج لايزابيل وهي ترى هطول المطر في ماكوندو » ، وكتب غيتان دوران في الهامش العلوي للورقة الأولى ، وفي الوقت نفسه الذي كنت أقول فيه : « مونولوج ايزابيل وهي ترى هطول المطر في ماكوندو » . وهكذا استعيدت من القمامة احدى قصصي القصيرة التي قوبلت بأفضل اطراء من جانب النقد ، ومن جانب القراء على وجه الخصوص . ومع ذلك ، لم تغدني هذه التجربة في عدم مواصلة تمزيق أصول المخطوطات التي تبدولي غير صالحة للنشر ، بل انها علمتني ضرورة تمزيقها بطريقة لا يمكن معها اعادة ترقيعها ثانية . ان تمزيق القصص القصيرة امر لا مناص منه ، لأن كتابتها أشبه بصب الاسمنت المسلح . أما كتابة الرواية فهي أشبه ببناء الأجر . وهذا يعني انه إذا لم تنجح القصة القصيرة من المحاولة الأولى فالأفضل عدم الاصرار على كتابتها . بينما الأمر في الرواية أسهل من ذلك : إذ من الممكن العودة للبدء فيها من جديد . وهذا ما حدث معي الآن . فلا الايقاع ، ولا الأسلوب ، ولا تصوير الشخصيات كانت مناسبة للرواية التي تركتها نصف مكتملة . وتفسير هذه الحالة هو واحد أيضاً : فحتى أنا نفسي لم اقتنع بها . وفي محاولة للبحث عن حلّ ، عدت إلى

قراءة كتابين اعتقدت انهما مفيدان . أولهما هو التربية العاطفية لفلوبير ، ولم أكن قد قرأته منذ أرق الجامعة البعيد ، فلم يفدني إلا في تفادي التشابهات التي كانت ستبدو مريبة ، لكنه لم يحل لي المشكلة . أما الكتاب الآخر الذي عدت إلى قراءته فهو بيت الحميلات النائمات لياسوناري كاواباتا ، الذي صفع روحي قبل ثلاث سنوات ، وما زال كتاباً جميلاً . لكنه لم ينفعني هذه المرة في شيء ، لأنني كنت أبحث عن أساليب التصرف الجنسي لدى المسنين ، وما وجدته في الكتاب هو سلوك المسنين اليابانيين ، الذي يبدو شاذاً مثل كل ما هو ياباني ، وليست له أدنى علاقة دون ريب بالسلوك الجنسي لمسن منطقة الكاريبي . حين تحدثت عما يقلقني على المائدة ، قال لي أحد ابني - وهو صاحب التوجه العملي - : « انتظر بضع سنوات اخرى وستتعرف على الأمر من خلال تجربتك الشخصية » . ما الآخر ، وهو فنان ، فقد كان أكثر دقة وتحديداً : « عد إلى قراءة آلام فارتير » ، قال لي ذلك دون أي أثر للسخرية في صوته . فحاولت قراءته فعلاً ، ليس لأنني أب مطيع جداً وحسب ، وإنما لأنني فكرت كذلك بان رواية غوته الشهيرة قد تفيدني . لكنني لم أنته هذه المرة إلى البكاء في جنازة الشاب فارتير ، كما جرى لي في المرة السابقة ، وإنما لم أستطع تجاوز الرسالة الثامنة ، وهي تلك التي يروي فيها الشاب المنكوب لصديقه غيليرم كيف أنه بدأ يشعر بالسعادة في كوخه المتوحد . ووجدت نفسي ما أزال في مكاني ، حتى انني لم أجد غرابة في اضطراري إلى عض لساني كي لا أسأل كل من ألتقي به : « قل لي يا أخي : « اللعنة ، كيف يمكن كتابة رواية ؟ » .

طلب مساعدة :

لقد قرأت يوماً ، أو شاهدت فلماً ، أو أن أحداً روى لي حادثة واقعية ملخصها كما يلي : أدخل ضابط في البحرية عشيقته إلى قمرة سفينته الحربية خفية ، وعاشا حباً صاخباً في تلك الحجرة الضيقة ، دون أن يكشف أمرهما أحد

لعدة سنوات . فأرجو من يعرف من هو مؤلف هذه القصة الجميلة ان يعرفني به بأسرع ما يمكن . فقد سألت كثيرين وكثيرين وكانوا جميعهم لا يعرفونه ، حتى بدأت أشك بأنها قد خطرت لي أنا بالذات في أحد الأيام ونسيتها . شكراً .

في تلك الأزمنة أزمة الكوكاكولا

لقد أثبت الكوبيون ، بين الأشياء الكثيرة التي اثبتوها ، أنه يمكن العيش دون «الكوكا - كولا» على بعد تسعين ميلاً من الولايات المتحدة . فالكوكا - كولا هي البضاعة الأولى التي نفذت بعد فرض الحصار الاقتصادي على كوبا ، ولم يبق من ماضيها أي أثر اليوم في ذاكرة الأجيال الجديدة . وكما في جميع البلدان الرأسمالية ، كان أشهر المرطبات في العالم قد تحول في كوبا القديمة ، المفسدة في سياحة بلا قلب ، إلى عنصر جوهري من عناصر الحياة .

بدأت الكوكا - كولا بالدخول إلى كوبا في ظل دكتاتورية الجنرال خيراردو ماتشادو الوحشية ، في العقد الثاني من هذا القرن الذي ولد تحت برج التفاهة ، حين لم تكن قد اخترعت بعد السدادات المعدنية التاجية ، وكانت زجاجات المياه الغازية تغلق بكرة زجاجية مضغوطة ومثبتة بسلك ، مثل فلين زجاجات الشمبانيا . وكانت عملية ادخالها إلى البلاد شاقة جداً ، وربما كان السبب في ذلك هو عائق ثقافي : إذ ليس للكوكا - كولا طعم لائني . ومع ذلك ، وشيئاً فشيئاً ، تمكن الضغط الدعائي المخاتل من احداث شرخ استجابة في أشد البؤر الاجتماعية تأثراً بالذوق السائد في الولايات المتحدة ، إلى أن أزاح مذاقها السكسوني من السوق الليمونادة المألوفة المصنوعة من ليمون حقيقي وجميع المرطبات الوقورة ذات السدادات الكروية الموروثة عن اسبانيا الريفية ، كما أنها هزمت علكة Wrigley's المرنة كرمز لنمط غريب من الحياة .

ساد الاعتقاد بان من يشرب زجاجة «كوكا - كولا» في ساعة معينة كل صباح يتعرض للإصابة بفتنة أو ادمان شبيه بالادمان على السيجارة أو القهوة . وكان يسود اعتقاد بأن ذلك ناتج عن مركب سري الشراب . وحسب بعض المتضلعين ، فقد كانت «الكوكا - كولا» تحتوي على الكوكائين حتى عام ١٩٠٣ ، ونشأتها تفسح المجال للإيمان بصحة هذا الرأي . فقد اخترعت أول الأمر كدواء وليس كمرطب ، وذلك في أواخر القرن الماضي ، على يد دكتور يدعى بامبيرتون ، وهو صيدلاني من ألاباما (جورجيا) ، كان يعيها باسمها الشهير لعلاج التشنجات المعوية والمغص الصباحي . ويحمل اسم الشراب وزمن انتاجه على الاعتقاد بأنه كان يحضر فعلاً من أوراق نبات الكوكا ، الذي يستخرج منه الكوكائين ، إذ كان شائعاً في ذلك الزمان استخدام أوراق البلادونا واكسير الباريفوريكو لتسكين الآلام الباطنية . وقد باع الدكتور بامبيرتون معادلة الشراب عام ١٩١٠ إلى شركة المرطبات التي ستغزوبه العالم . ولأن الشراب يحتوي على مادة سرية فقط ، نال مقابله مبلغاً خيالياً بالنسبة لذلك الزمان : خمسمئة دولاراً . ومع ذلك ، فقد اثبتت سلطات البير وعام ١٩٧٠ ان المرطب لا يحتوي على كوكائين ، وكان بوسع هذه السلطات منع تداوله لو شاءت ، لأن اسمه يحمل الجمهور على الاعتقاد ان الشراب يحتوي شيئاً لا يحتويه في الواقع ، وفي فرنسا ، - حيث يتوجب التنبيه إلى كل بضاعة تحتوي على مادة ذات استخدام حساس ، يُطبع على زجاجات «الكوكا - كولا» تحذير يقول إنها تحتوي على الكافيين . وتقول الاسطورة إن شخصين في العالم كله فقط يعرفان المعادلة السرية للشراب ، وانهما لا يسافران معاً في طائرة واحدة على الإطلاق .

أثناء مهرجان الشباب في موسكو ، عام ١٩٥٧ ، كان أول ما فاجأ الزائرين الغربيين خلال أربعة أيام مديدة من التجوال في أرجاء اوكرانيا هو رؤيتنا لحظائر متوحدة تطل أبقارها من النوافذ ، ولقري وعرة تجوبها عربات محملة بالزهور ورجال غامضين يخرجون بالبيجامات لاستقبال القطار في المحطات ، لكننا لم نر في أي

مكان تحت سماء الصيف الملتهبة اعلاناً واحداً للكوكا - كولا . وقد لفت ذلك انتباه اذهاننا المشبعة بالدعاية الغربية . وبعد انقضاء عدة أيام من الإلفة ، تجرأت مترجمة متشوقة لمعرفة مفاتن الرأسالية ، وسألني ما هو مذاق الكوكا - كولا ، واجبتها بالحقيقة التي أحسها : « لها مذاق الأحذية الجديدة » . في ذلك الحين كان هناك أطباء يصفونها كدواء للأطفال المصابين بالزحار ، وآخرون ينصحون بتناولها لترميم قوة القلب ، كما كان هناك من يؤكدون ، ومن خلال تجربتهم الشخصية ، ان تناولها مع الاسبرين يمنحها مفعول المخدرات . أما طبيب اسناني ، فكان يؤكد دون أن يطرف له رمش ، انه يمكن لسن مغمور في كأس من الكوكا - كولا أن يذوب تماماً خلال ٤٨ ساعة .

عند انتصار الثورة الكويتية ، كانت امكانيات توسيع سوق « الكوكا - كولا » في كوبا محدودة جداً ، لأن موزعيها كانوا قد وصلوا بها إلى أبعد من حدود امكانياتها كمرطب ، وذلك باختراعهم « الكوبا ليري » - وهي مزيج من الكوكا كولا والروم الكوبي - ولكن ، حتى في هذه الحالة ، فإن ٩٠٠ ألف كوبي فقط من أصل ستة ملايين كانوا في ظروف تسمح لهم بشرائها بشكل منتظم . وحين استولى العمال الكوبيون على معامل التعبئة في هافانا ، لم يتمكنوا من مواصلة انتاج الكوكا - كولا ، لأن المادة الأساسية كانت تأتي من الولايات المتحدة ، والكمية المخزنة منها في المصنع كانت ضئيلة جداً . والشيء الوحيد الذي بقي مبعثراً في جميع أرجاء البلاد هو مليون زجاجة فارغة .

أبدى المتشددون معارضتهم لمحاولة تصنيع بديل لشراب يمثل رمزاً لكل ما كان الكوبيون يودون نسيانه . لكن تشي غيفارا ، بوضوحه السياسي المذهل ، رد عليهم بالقول ان رمز الامبريالية ليس في الشراب بحد ذاته ، وانما في شكل الزجاجاة بالذات . والحقيقة ، التي ربما لم يعرفها غيفارا على الإطلاق ، هي أن تصميم الزجاجاة لم يتم إلا في سنة ١٩١٥ ، أي بعد نحو عشرين سنة من ابتكار الدكتور بامبرتون للشراب ، وحين لم يكن للكوكا - كولا من وجود إلا في الولايات

المتحدة. ولكنهم منذ ذلك الحين بدأوا يتجرؤون على إرسالها وحيدة لتجوب العالم.

وكان تشي غيفارا بالذات هو الذي قرر، كوزير للصناعة، بدء المحاولة لتصنيع بديل يستخدم في «الكوباليبري». كانت أكثر العقول جموداً قد فكرت باتلاف الزجاجات الفارغة الموجودة في البلاد للقضاء على أصل الداء. لكن عملية حسابية جديدة أثبتت أن معامل القوارير الكوبية ستحتاج لعدة سنوات كي تعوض تلك الزجاجات باخرى ذات شكل أقل خبثاً، وكان على أشد الثوريين تشدداً أن يستخدموا الزجاجات الملعونة إلى أن يتم انقراضها بشكل طبيعي. وكل ما هنالك انهم أصبحوا يعبثونها بكل أنواع المرطبات، ما عدا ذاك الذي ارتجلوه للإستخدام في «الكوبا ليبري». وحتى سنوات قريبة، كنا نحن الزائرين القادمين من بلدان رأسمالية نشعر بنوع من البلبلة الذهنية حين نتناول ليمونادة شفافة في زجاجة «كوكا - كولا».

وقد كان الكوبيون أنفسهم هم أول من وافق على أن تقليدهم «للكوكا - كولا» ليس أحد نجاحاتهم الكبرى. فقد راجت طرفة في الشارع، واكتسبت شعبية واسعة، حتى أن الكيميائيين أنفسهم كانوا يروونها، تقول إن كل زجاجة من شرابهم لها مذاق مختلف عن الأخرى، وهذا يجعل منه المرطب الأكثر أصالة في العالم. وحين قدموا العينة الأولى منه إلى تشي غيفارا، تذوقها، وتمعن بمذاقها بجدية ذواقة محترف، ثم قال دون أدنى تردد: «لها طعم البراز». وفيما بعد، أعلن عبر التلفزيون أن لها طعم الصراصير. لكن هذا الشراب الجديد شق طريقه رغم ذلك.

والمادة الجديدة، التي سميت مرطب الكولا، دون أي ادعاء آخر، انتهت للتوصل إلى لون يشبه إلى حد بعيد لون الشراب الأصلي، وإلى طعم لم يعد هو طعم البراز أو الصراصير، لكنه خالٍ دون ريب من الطعم السكسوني. فمذاقه أحلى قليلاً، وهو أقل جفافاً وبه نكهة غريبة من الشوكولاته، كما أنه شراب جيد

للتخلص من الظمأ والحر، وعند مزجه مع الروم الكوبي الأصيل يتوارى مظهره الدخيل إلى أقصى الحدود.

ومن جهة أخرى، أجهز سوء الاستعمال المتعمد على الزجاجات القديمة قبل الوقت المتوقع بكثير، وتلاشى الرمز من الذاكرة الاجتماعية ولم يصل إلى الأجيال الجديدة. وبعد خمس عشرة سنة من بدء الحصار الاقتصادي، وجد كاتب كوبي بالمصادفة، أثناء مروره العابر في باريس، زجاجة كوكا - كولا شاردة من المغرب، عليها كتابة بالحروف العربية المبهمة الشهيرة. وبدافع الفضول اشترى الكاتب الزجاجاة ليحملها معه إلى هافانا، ولدى وصوله عرضها بابتهاج على ابنته ذات الخمسة عشر عاماً. نظرت الطفلة إلى الزجاجاة بحيرة دون أن تفهم سبب مبالغة أبيها بالاعجاب. فقال لها: «انظري، تأملوها جيداً، انها زجاجة كوكا - كولا مكتوب عليها بالعربية». فسألته الصغيرة التي ما زالت في حيرة من الأمر: «وما هي الكوكا - كولا؟».

الريف ذلك المكان الرهيب، حيث الدجاجات تمشي نيئة

في استفتاء أجري مؤخراً لأطفال المدن الأوروبية الكبرى، سُئل هؤلاء الأطفال عن اسم الرجل الذي يوصل الرسائل إلى البيت، وعن اسم من يأتي بالحليب، وعن من يأتي بالجريدة والخبز، ومن يجمع القمامة، ومن يصلح الأعطال الصغرى في النور والماء. وكانت إجابة الأطفال على الأسئلة كلها شبه اجماعية: انه البواب.

ليس هناك ما يجعلهم يجيبون بشيء آخر. ففي هذه التجمعات المدنية الضخمة، حيث تكون ولادة زهرة شيئاً أشبه بمعجزة الخلق، لا بد لكل من يدخل إلى الشقق من المرور عبر الممر النظامي والاجباري، والصادر كذلك عن العناية الإلهية، أي البواب.

إن ما علمونا معرفته على أنه الطبيعة ونحن أطفال، وهو في الواقع كل ما كان يحيط بنا في القرية، قد انتهى به الأمر ليبدو وكأنه برنامج ساحر من برامج التلفزيون فليس مستهجناً إذن أن يجهل طفل يعيش في الطابق السادس عشر، ولا يخرج من البيت إلا للذهاب إلى المدرسة في حافلة، ويقضي اجازة الشتاء في منتجع ثلجي، والصيف على شاطئ معمر، أن يجهل وجود رجل كان يرتدي في زمن مضى زياً أزرق ويوصل الرسائل إلى أصحابها على دراجة، وأنه كان هناك رجل آخر ذوداء أبيض لا يحمل الحليب إلى البيوت وحسب، بل انه كان دقيقاً كذلك في مواعده حتى يمكن الاستفادة منه كمنبه. وجميع هؤلاء كانوا

يؤلفون في نهاية الأمر جزءاً من الأسرة، فهم يدخلون إلى المطبخ لتناول القهوة وللحديث في أسرار الجوار مع غيرهم من عمال الخدمة، إلى أن نسمع في أحد الأيام من يقول في ساعة الغداء، وبكل بساطة: «بيترا حامل من ساعي البريد». والبراءة الوحيدة التي كنا نبيحها لأنفسنا، نحن أطفال ذلك الزمان، هي الاعتقاد بأن الابن الذي ستجبه بيترا لا يمكن له أن يكون إلا ساعي بريد صغير.

لقد تمكنت رياح الحضارة في اسبانيا من القضاء على واحد من أبرز شخصيات حياة هذه البلاد وأدبها، وأعني به الحارس الليلي. وما زال هناك بعض هؤلاء الشيوخ المتقاعدين الذين لا يخفى عليهم سر من أسرار شارعهم، لأنه لا يمكن حدوث شيء فيه دون أن يعلموا به. فالحارس الليلي كان مسؤولاً عن أمن قطاعه وكان يحمل حزمة تضم مفاتيح جميع البيوت. فلا أحد ممن يرجعون متأخرين يحمل مفتاحه، بل يطلبون من الحارس الليلي أن يفتح لهم الباب. وكان ذلك الحارس في متناول اليد دوماً: يكفي أن تبحث عنه في الحانة التي على الناصية، حيث يقضي الليل عادة في تبادل الحديث مع حراس الحي الآخرين، أو يكفي أن تصفق بكفيك ليحضر في الحال. انني أتساءل ما الذي سيفكر به أطفال المدن الاسبانية الكبرى اليوم إذا ما خطر لأحد أن يروي لهم كيف كان السيد الحارس الليلي الذي كان يفتح لنا الأبواب. لا ريب في أنهم لن يصدقوا ذلك، كما أنهم لن يشعروا في شيخوختهم بالحنين إلى مجلخ السكاكين والمقصات الذي كان يتردد على الحي في فترات منتظمة، مثل الكسوف، مخلفاً هواء الشارع عابقاً بأنغام مزماره.

بين جميع شخصيات طفولتنا هذه، والتي أصبحت أقل ظهوراً وأقل وضوحاً بالنسبة لأطفال اليوم، كان الشخص الوحيد الذي يعتبر نذير شؤم هو موصل البرقيات المسكين. وربما أسهم أولئك المراسلون أنفسهم في تكوين تلك الصورة المشؤومة لطريققتهم المتسرعة في طرق الأبواب، ولإطلاقهم صغيراً كان يبدو دوماً

وكأنه صفارة طواريء. ثم صراخهم: «برقية!». فقبل ذلك بكثير، وحين كانت الدنيا كلها ملكاً لنا، كانت مهمة الإنذار تلك محجوزة للمنجمين. لكن موظفي التلغراف، ومنذ اختراعه، أصبحوا هم نذر الموت. فقبل أن يتمكن أحد من فتح الباب لهم، كان لا بد من مساعدة الجدة التي انهارت مغمى عليها، ثم أن الكلاب كانت تنطلق بالنباح في الفناء عند وصولهم، وكانت الدجاجات تعتلي عوارض القن لتنام في وضوح النهار وقد تشوش احساسها بالوقت بسبب الكارثة. وكان أحدنا يتفحص وجه الرسول وهو يستلم البرقية منه، فيبدو مستحيلاً ألا يكون عارفاً بنص برقية مصيبتنا. ونشكره بخيط من صوتنا، فيما قلبنا يكاد ينخلع، آسفين في أعماق روحنا لأنه لم يعد من وجود لعادة القرون الوسطى القضائية بشنق كل من يحمل أخباراً مشؤومة. ومع مرور الزمن، اختفى ذلك الخوف من البرقيات بسبب تأخر وصولها الذي صار مثاراً للسخرية. فقد أرسل أحدهم حين عزم على السفر البرقية التالية إلى حبيبته: «عندما تصلك هذه البرقية سأكون بين ذراعيك».

حتى طبيب الأسرة، الذي كان مجرد حضوره في البيت كافياً لخفض الحرارة، استبدل في المدن بالوهية مجهولة لا يعرفنا قلبها. فقد روى لي أحدهم قبل وقت قريب عن مريض في حالة خطيرة طلب منه الاختصاصيون في مختلف الاختصاصات ستة تحاليل متنوعة. وقد مات المريض في تلك الليلة بالذات، وبعد مرور أربع وعشرون ساعة، حين كان قد دُفن، كشفت التحاليل عن أنه في حالة صحية جيدة. ان هذه الأحداث الرهيبة التي انتجتها الحضارة وتُروى للأسف كدعابات قاسية، لا يمكن فهمها إلا في عالم يسأل فيه الأطفال آباءهم إذا ما كانت الأبقار تضع بيوضاً، وإذا كانت المعكرونة تنمو على الأشجار.

لم يتوصل التلفزيون إلى إيجاد حلّ لهذه الشكوك، ولهذا تجبر المدارس الفرنسية تلاميذها على إتباع دورة خاصة الغرض منها حمل الأطفال للعيش في الريف مدة شهر، في الهواء الطلق وبعينين مفتوحتين، بحيث يتعرفون على

النصف الآخر من العالم الذي لا يتيح لهم النصف المتحضر رؤيته . ويخيل إليّ انه سيخطر لهم ما خطر لنا نحن الأطفال الريفيين حين أخذونا إلى المدينة لأول مرة . أتصور انهم سيتأملون دجاجة تضع بيضة بالرهبة المهيبة نفسها التي تعرفنا بها على السينما ؛ وسيرون كلبين ملتحمين في الطريق بالانفعال نفسه الذي كنا نرى فيه رجال الاطفاء وهم يعملون في اخماد حريق ؛ وسيرون مرور الحمير الحقيقية التي من لحم وعظم ، وسيسمعونها تنهق نهيقاً حقيقياً ، وسينزعون شعراً من مؤخرتها بوهم المغامرة نفسه الذي كنا نرى فيه هبوط أول الطائرات .

صديقي اليخاندرو سانتسوروينو، الذي أتقدمه بنحو ٤٢ سنة في الحياة ، والذي أنهى دورته للتعرف على الطبيعة في شرق فرنسا ، روى لي تجربته بالانهار نفسه الذي كان يروي به الملاحون القدماء أخبار رحلاتهم . لكن قصته ، على بعد عشرة آلاف كيلومتر عن وطننا المشترك ، جعلتني أعي كم نحن بعيدون عن هذا الوطن في الزمان أيضاً . فقد أخذوا فريق اليخاندرو فعلاً ليروه كيف يتم قطع شجرة ، لكن الخطاب لم يكن من اولئك الذين كانوا يقضون يوماً كاملاً وهم ينقرون الجذع بالفأس مثل العصفور نقار الخشب ، وانما كان يقطع الشجرة بحسابات علمية دقيقة ، مستخدماً في عمله منشاراً كهربائياً . ورأى كيف تُحلب البقرة ، ولكن ليس بواسطة اليد وحدها ، كما رأيته أنا في لوس سيبتي كوليناس دي كولوريس ، ببويাকা ، وانما بواسطة جهاز حلب كهربائي تحمل أنابيبه العاقرة الحليب إلى حجرات البسترة مباشرة . هذا يعني انه يكاد يكون مستحيل العثور في البلدان المصنعة على مكان يستطيع الأطفال فيه تكوين صورة واقعية عن همجية التخلف الجميلة والمحزنة . أما ابناي فانها يتذكرا ن كل لحظة فريدة في حياتيهما مساء اليوم الذي رأيا فيه ضفدعاً حياً وحقيقياً لأول مرة ، في القرية الكاريبية حيث ذهبا لزيارة جديهما . وقد انفعلا كثيراً لدرجة انهما حملا علبة طلاء وفرشاة كانت في متناول اليد ، وطلايا باللون الأصفر جميع الضفادع التي وجداها في القرية .

بيجي، أعطني قبلة

طلع الصباح على اعلان ضخيم مكتوب على جدار أبيض طويل، مقابل بيتي في مكسيكو، يقول: بيجي، أعطني قبلة. كان الاعلان مكتوباً ببخاخ حبره لا يُمحى، من ذلك النوع من الطلاء المستخدم في حرب الجدران السياسية، ويبدو فيه ذلك النبض المتفاوت في كثافة الطلاء وقلته كما في الاعلانات السرية التي تُكتب في هدأة الفجر بأنفاس مكتومة، فيما الشركاء يحرسون زوايا الشارع لاعطاء الانذار المناسب. لكن الاعلان كان في مكان بعيد عن المنطقة العمرانية التي تدور فيها عادة تلك الحروب الشبحية، بل وحيث لا يكاد يصل الانفراج الاخلاقي للمدينة الجامعية القريبة. إلا أنه كان كبيراً بما يكفي لكي تراه بيجي وهي مارة دون شك، مهما كانت ساهية أو غير مبالية، وكان كثيباً بما يكفي للامسة شغاف قلبها الحجري.

حين اكتشفت الاعلان، كنت قد انتهيت لتوي من قراءة الصحف التي تشبه قراءتها في هذه الأيام تناول زجاجة كاملة من زيت الخروج على الريق. فقد حاولت، كعادتي عندما استيقظ كل صباح، أن أكوّن رؤية بانورامية للعالم من خلال الصحافة، ووجدت أن ثمة ذكرى مريرة من كل شيء، في كل مكان، وليس في نفسي فقط، كما كان شأن خوان تينوريو في أزمنة اخرى أقل اضطراباً. لهذا أحسست بنفحة عزاء حين اكتشفت انه ما يزال هناك أحد قريب جداً من بيتي، لا مشكلة له في هذا العالم سوى أن تمنحه بيجي قبلة.

لقد نشرت صحيفة اسبريسو الايطالية منذ عهد قريب، مقالاً حول فرضية

أن موضة الجنس آخذة بالاختفاء ، وأن الحب على الطريقة القديمة يعود للإنتشار بكبريائه . وكشفت الصحيفة عن نتائج استفتاءات قالت بمقتضاها إن أعداداً متزايدة من الرجال والنساء آخذة بالإقلال من ممارسة العمل الجنسي ، بل وأن هناك أزواجاً ما زالوا سعداء رغم توقفهم عن ممارسته نهائياً . وعزت هذا الانصراف عن جنون الجنس إلى سنوات الستينات التي استنفدت فيها الإنسانية على ما يبدو كل احتياطيها الشهواني . وهناك احصائيات لاثبات ذلك . فثلاثون بالمئة من الفتيات ، وخمسة وخمسون من الفتيان مارسوا تجارب جنسية قبل بلوغهم سن الخامسة عشرة في منتصف الستينات ، بينما اعترف بممارسته في نهاية العقد أربع بالمئة من الفتيات وثلاثة عشر بالمئة من الفتيان ممن هم في الخامسة عشرة من عمرهم .

لا أظن رغم ذلك أن تلك الاحصائيات هي دليل لاثبات أننا متعبون من الجنس ، وإنما لاثبات أننا نمنحه في حياتنا النسبة التي يستحقها بعدل ، وإننا نعيد إلى الحب عناصر كنا قد سلبناه إياها . لقد شهدت على امتداد حياتي عملية تحرر جنسي في بلدين كان الأمر فيهما يبدو بعيد الاحتمال : كولومبيا وإسبانيا .

ففي هذا البلد الأخير ، الذي كان عبارة عن بيت برناردا ألبا فسيح ، يمتد من الكانتيري وحتى البحر المتوسط ، بدأت تظهر الضغوط الاجتماعية الرهيبة ضد أحزمة العفة قبل موت الجنرال فرانكو بزم من طويل . قبل نحو خمس عشرة سنة ، حين كانت الحاجة أقوى من الأخلاق وفتحت الأبواب للسياحة الأوروبية ، كان رجال الحرس الأهلي يلاحقون على الشواطئ الحوريات الهاربات من ثلوج الشمال واللواتي لا يكدن يرتدين سوى خطوط من مايوه بيكيني . وكانت أمهات الأسر الفاضلات يقلن مستنكرات حين يرينهن من نوافذ بيوتهن : « فاجرات » . وفي الفنادق ، حتى في أحدثها وأغلاها ، كانت زيارة الغرف محظورة ، وكان التشدد أكبر إذا ما كان الزائر من الجنس ذاته . وكانت العلامة الأولى التي لمحت فيها أن هناك شيئاً آخذاً بالتبدل في مجتمع القرون الوسطى ذاك هي إغلاق فندق العابرين

الشهير في المدينة لعدم وجود الزبائن ، وأعني به فندق بيدربليس الذي كان قصراً غابراً ، فيه حجرة صينية حيث كل ما فيها يجعلها تبدو كما لو كانت في الصين ، وحجرة فارسية كل ما فيها يجعلها تبدو كما لو كانت في بلاد فارس . وكانت فيه ستائر من المخمل كما هي ستائر جميع مواخير العالم ، ومرايا تُظهر كامل القامة على السقوف ، ربما لكي يشعر الزبائن بأنهم يمنحونهم هناك مقابل النقود ذاتها التي يدفعونها ، اللذة ذاتها مكررة عدة مرات . ولم تكن لابني اللذين كانت مدرستهما الابتدائية مجاورة لتلك اللجنة السرية ، من تسلية في الاستراحة بين الدروس ، أفضل من تسلق الجدار الفاصل ورصد ما يحدث في الجانب الآخر . والحقيقة أن أمتع ما كان يحدث هو أن الجراسين الخدميين كانوا يهرعون لتغطية لوحات السيارات الداخلة ، كي لا يستطيع الزبائن الآخرون معرفة صاحبها ، في وهم لا جدوى منه لإخفاء الأسرار في مدينة صغيرة محبة لتداول الاشاعات ، حيث تنتشر أنباء الأحداث قبل وقوعها .

كل ذلك يذكرني ببوغوتا الأربعينات ، حين جئتها لأول مرة من الساحل الكاريبي ، بثلاث عشرة سنة من العمر وبعذرية مفقودة ، كما هي العادة الطيبة في موطني . كانت أمي ، مثل سواها من الأمهات ، تحرسني من الخطرين الكبيرين اللذين كانا يتربصان بنا في تلك الحقبة : النزلة الرئوية والزواج الاجباري . والحقيقة اننا ، نحن الكاريبيين (وليس الكاريبيينيون ، كما يقال الآن ، ولا أدري لماذا يقولونه هكذا) المعتادين على التعري في أي مكان حيث الحرارة في الظل تصل إلى ثلاثين درجة مئوية ، كنا نعيش تحت رحمة رياح الانديز المتقاطعة ، وكان كثيرون منا يموتون بالنزلة الرئوية بطريقة صاعقة وحزينة تشبه غرق السياح البوغوتيين في البحر . لهذا كانوا ينصحوننا دوماً بالتعري وراء أبواب موصدة ، وتغطية أفواهنا بمنديل عند الخروج من السينما ، مثلما هوشائع في بوغوتا حتى الآن ، ولست أدري ما هو الأساس العلمي لذلك .

وكان الخطر الآخر هو الزواج بالإكراه . فالواقع أننا كنا معتادين على الدب

منذ طفولتنا في بيوت الآخرين ، أو معتادين على أن تدب الخالات في بيوتنا ،
وبقينا نحن أبناء الساحل في بوغوتا ، على اعتقادنا بأنه يمكن عمل ذلك دون
عقاب ، إلى أن نجد أنفسنا في معظم الأحيان في وضع مربك هو الحَبَل .
كان ذلك الخيار هو أقل الخيارات رعباً كذلك . فقد كنا نعيش في عصر
تفشي الأمراض التناسلية ، وكانت هناك اعلانات في الحافلات وفي المراحض
العامة ، وفي كل مكان تذكرنا بذلك : «إذا كنا لا نخاف من الله ، فلنخف من
السفلس» . فكانت الوسيلة الوحيدة للخلاص من العزلة هي حفلات السبت
الراقصة ، مقابل دفع بيزوين اثنين ، وفيها كنا نرى بعمق الجانب الوحيد المباح من
الحب : رقصة البوليرو ، ثم المواعيد في اليوم التالي لدى الخروج من الصلاة ،
والرسائل المعطرة ، وصالات السينما الاضطرارية ، والدموع على الوسائد الخالية ،
والشعر .

كل هذا ذهب في الستينات ، كنسته رياح الجنس المحض . ولم يبد لي ذلك
سيئاً ، وإنما على العكس . ولكن من الأفضل أن يكون الجنس جنساً إلى جنب مع
جميع الأشياء الأخرى ، ليشكل الحب المتكامل . وهذا هو دون ريب ما يأتي الآن ،
استناداً إلى اعلانات القلب . فروايات الحب عادت لتحتل مكان الصدارة في
المبيعات . وعاد المحبون إلى تبادل القبلات في الشوارع . ومنذ بضعة أيام ، طلب
ابني ذو الثمانية عشر عاماً من أمه أن تعلمه رقص البوليرو ، لأن موضحة البوليرو
أخذت تعود ، رقصاً وغناء ، وهم يفتحون في اميركا اللاتينية واسبانيا صالات
رقص معتمدة لاهياء تلك الرقصة من جديد .

لقد كنت مؤمناً على الدوام بأن الحب قادر على انقاذ الجنس البشري من
الدمار ، وهذه العلائم التي تبدو ارتداداً إلى الوراء هي على العكس من ذلك تماماً
في الحقيقة : انها أنوار أمل . ولذا فإنني أتمنى بكل لهفة أن تقرأ بيحي الإعلان الذي
كتبه لها أحدهم مقابل بيتي .

وأرجوك يا بيحي ، إعطه قبلة .

أنا الآخر

منذ بضعة أيام ، وعند استيقاظي في سريري بمكسيكو، قرأت في إحدى الصحف أنني قد ألقيت محاضرة أدبية في اليوم الفائت في مدينة بالمادي غران كاناريا (بجزر الكناري ، على الجانب الآخر من المحيط . ولم يكتفِ المراسل الصحفي الدقيق بإيراد رواية مفصلة للحدث ، بل أنه قدم كذلك موجزاً موحياً لمحاضرتي . لكن أكثر ما فتنني هو أن الموضوعات المطروحة كانت أكثر ذكاء مما يمكن أن يخطر لي ، والطريقة التي عُرضت بها كانت أكثر جاذبية مما أستطيعه . ولم يكن فيها سوى عيب واحد وحيد : فأنا لم أكن في مدينة بالمأ ، لا في اليوم الفائت ولا خلال السنوات الاثنتين والعشرين الماضية . كما أنني لم ألق في حياتي محاضرة واحدة حول أي موضوع في أي مكان من العالم .

كثيراً ما يجري الإعلان عن حضورني في أماكن لا أكون موجوداً فيها . رغم أنني قلت في جميع الوسائط المتاحة أنني لا أشارك في الاحتفالات العامة ولا ارتدي زي الاستاذ الجامعي ولا أظهر في التلفزيون ولا أشارك في الدعاية لبيع كتبتي ولا أساهم في أية مبادرة يمكن لها أن تحولني إلى استعراض . واحجامي عن ذلك ليس تواضعاً ، وإنما لسبب أسوأ : انه الخجل . وهذا لا يكلفني أية مشقة ، لأن أهم ما تعلمت عمله بعد أربعين سنة هو أن أقول لا ، حين يجب عليّ أن أقول لا ، ومع ذلك ، لا يُعدم وجود محب للإثارة ، يعلن في الصحافة أو في الدعوات الخاصة ، باني سأكون في الساعة الرابعة من مساء يوم الأربعاء القادم في حفل ما لا علم لي

به . وفي الساعة الموعودة ، يعتذر محب الإثارة عن نكث الكاتب الذي وعد بالحضور ولم يأت ، ويضيف بضع قطرات من السم على أبناء عاملي التلغراف الذين تصيبهم الشهرة بالغرور، وينتهي إلى الفوز بتعاطف الجمهور ليفعل ما يشاء . في بدء حياة الفنان التي أعيشها ، كانت هذه الخدعة الخبيثة تسبب لي تآكلاً في الكبد . لكنني وجدت شيئاً من العزاء وأنا أقرأ مذكرات غراهام غرين الذي يشكو من الأمر ذاته في الفصل الأخير الممتع من مذكراته . فقد جعلني أدرك أنه لا علاج للمسألة ، وانها ليست خطيئة أحد ، لأن هناك أنا آخر يمضي طليقاً في الدنيا ، دون أي نوع من الرقابة ، ويُقدم على عمل كل ما يتوجب على أحدنا عمله ولا يجرؤ عليه .

ولم تكن محاضرة مدينة بالما في جزر الكناري الملفقة هي الحدث الأكثر غرابة في هذا المنحى ، وإنما تلك الحادثة المشؤومة التي وقعت لي منذ سنوات مع شركة إير فرانس بمناسبة رسالة لم أكتبها أبداً . القضية هي أن شركة إير فرانس تلقت احتجاجاً رناناً وحائقاً ، يحمل توقيعى ، وفيه أشكو من سوء المعاملة التي كنت ضحية لها في الرحلة العادية التي تقوم بها الشركة بين مدريد وباريس ، في يوم محدد . وبعد تحقيق صارم ، أنزلت الشركة بالمضيعة العقوبات المتعلقة بالقضية ، وبعثت إدارة العلاقات العامة إلى رسالة اعتذار شديدة التهذيب والأسف ، تركتني في حيرة من أمري ، لأنني لم أسافر في الواقع أبداً في تلك الرحلة . بل وأكثر من ذلك : انني أطير دوماً وأنا خائف ، حتى انني لا أنتبه إلى كيفية معاملتهم لي ، وأكرس كل طاقاتي لتثبيت مقعدي بيدي كي أساعد الطائرة على البقاء محلقة في الجو ، أو أحاول منع الأطفال من الركض في الممرات خشية أن يثقبوا أرضية الطائرة . والحادث غير السار الوحيد الذي اذكره في الطائرات وقع أثناء رحلة مع نيويورك في طائرة مكتظة وخائفة ، حتى أن التنفس فيها كان مضنياً . وخلال الرحلة ، قدمت المضيعة وردة حمراء لكل مسافر . وكنت في حالة من الخوف جعلتني أفتح لها قلبي وأقول لها : « بدلاً من تقديم الوردة إلينا ، سيكون أفضل لو أنكم

تمنحوننا خمسة سنتمترات اخرى من الفراغ لنريح أرجلنا». فردت علي الصبية الجميلة، المنحدرة من سلالة الفاتحين النزقين قائلة بتمد: «إذا كان هذا لا يعجبك، فانزل». لم يخطر لي بالطبع كتابة أي رسالة احتجاج الى الشركة التي لا أريد أن أتذكر حتى اسمها، وانما رحت آكل الورد، ورقة ورقة، ماضغاً دون تسرع أريجها الطبي المضاد للقلق، إلى أن استعدت أنفاسي. وهكذا، فقد أحسست بالخجل من شيء لم أفعله عندما تلقيت رسالة الشركة الفرنسية، فذهبت بنفسى إلى مكاتبها لتوضيح الأمور، وهناك عرضوا علي رسالة الاحتجاج. ولم يكن بإمكانى انكارها، ليس لاسلوها فقط، وانما كذلك لأن اكتشاف زيف التوقيع كان سيكلفني جهداً.

لا شك أن من كتب تلك الرسالة هو نفسه الذي ألقى المحاضرة في جزر الكناري، وهو الذي يفعل أموراً كثيرة لا أكاد أعلم بها إلا مصادفة. ففي معظم الأحيان، وحين أذهب إلى بيت أصدقاء لي، أبحث عن كتي في مكتبتهم متظاهراً بالتسلي، وأكتب لهم اهداء عليها دون أن ينتبهوا إلى ذلك. لكنني وفي أكثر من مناسبتين، وجدت أن الكتب مهداة، بخطي ذاته، وبذات الحبر الأسود الذي أستخدمة دوماً، وبالأسلوب المتسرع ذاته، ويتوقع لا ينقصه ليكون توقيعى إلا أن أكون أنا من كتبه. وقد قادتنى المصادفة وحدها لأن أقرأ في صحف لا تخطر على بال، مقابلات معى لم أقدمها على الإطلاق، لكنني لا أستطيع انكارها لأنها تعبر بنزاهة، وسطراً سطرأ، عن أفكارى. بل ان أفضل مقابلة معى نشرت حتى اليوم، وكانت تعبر خير تعبير وبأكثر الأساليب وضوحاً عن أشد منعطفات حياتى تعقيداً، ليس في مجال الأدب وحسب وإنما كذلك في السياسة، وفي ذوقى الشخصي، وفي أفراح قلبى وأتراحه، هي تلك المقابلة التي نشرت منذ سنتين في صحيفة مغمورة تصدر في كاراكاس، وكانت مختلفة حتى النفس الأخير منها. لقد سببت لي فرحاً عظيماً، ليس لصوابها الدقيق فقط، وانما لأنها كانت موقعة كذلك بالاسم الكامل لامرأة لا أعرفها، ولكن لا شك في أنها تحبني كثيراً كي تعرفني إلى

هذا الحد، حتى ولو كان ذلك من خلال أنا الآخر فقط .
وقد حدث لي الشيء ذاته مع أناس مندفعين وودودين التقى بهم في أرجاء العالم كله . ودائماً أجد أن هناك من كان معي في مكان لم أذهب اليه مطلقاً، ويحتفظ بذكرى لطيفة من ذلك اللقاء . أو انه صديق حميم لفرد لا أعرفه من أفراد أسرتي ، لأن أنا الآخر فيها يبدو له أقرباء كثيرون مثلي ، وإن كانوا هم كذلك ليسوا الأقرباء الحقيقيين ، وإنما صورة طبق الأصل لأقربائي . وكثيراً ما التقى بأحدهم في مكسيكو، فيحدثني عن الحفلات البابلية الصاخبة التي اعتاد أحياءها مع أخي هومبرتو في اكابولكو . والمرة الأخيرة التي التقيته فيها شكرني على الخدمة التي قدمتها اليه من خلال أخي ، ولم أجد مفراً من القول له انه ليس هناك ما يستوجب الشكرياً رجلاً . وهذا أقل ما يمكن عمله ، لأن قلبي لم يطاوعني أبداً على الاعتراف له بأنه لم يكن لي في يوم من الأيام أخ يدعى هومبرتو أو يعيش في اكابولكو .

منذ نحو ثلاث سنوات ، وكنت قد انتهيت من تناول الطعام في بيتي بمكسيكو، حين طُرق الباب ، وجاء أحد ابني ليقول لي وهو ينفجر ضاحكاً : «أبي ، أنت جاء يبحث عنك» . قفزت من المقعد وأنا أفكر بانفعال لا يمكن كبحه : «هاهوذا أخيراً» . لكنه لم يكن أنا الآخر ، وإنما المهندس المكسيكي الشاب غلبريل غارسيا ماركيز ، رجل هادئ ومهذب ، تحمل بصبر كارثة ادراج اسمه في دليل الهاتف ، وقد بلغت به الكياسة حد البحث عن عنواني ليحمل لي الرسائل التي اجتمعت في مكتبه خلال ثلاث سنوات . وقبل زمن قصير ، بحث أحدهم أثناء مروره بمكسيكو عن رقم هاتفنا في الدليل ، وحين اتصل ردوا عليه باننا ذهبنا إلى المستشفى لأن السيدة قد وضعت طفلة لتوها . وما الذي أتمناه أنا أكثر من هذا ! لكن ما جرى هو أن زوجة المهندس تلقت باقة ورد رائعة ، وهي تستحقها بجدارة ، احتفاء بحدث الطفلة السعيد الذي حلمت به طوال حياتي ولم أحصل عليه أبداً .

لا . فالمهندس الشاب لم يكن أنا الآخر، وإنما هو شخص محترم جداً: انه سمي . أما أنا الآخر، فلن يجدي أبداً، لأنه لا يعرف أين أعيش، ولا كيف أنا، ولا يمكنه أن يتصور اننا مختلفان إلى هذا الحد . سيواصل التمتع بوجوده الوهمي، الباهر والغريب، في نخته الخاص، وطائرته الخاصة، وقصوره الامبراطورية حيث يحمم عشيقاته بالشمبانيا ويقضي على خصومه الرئيسيين بالضرب . سيواصل التغذي باسطورتي، ثرياً إلى أقصى حدود الثراء، شاباً ووسياً إلى الأبد وسعيداً حتى الدمعة الأخيرة، فيما أواصل أنا الهرم دون أسف أمام آلي الكاتبة، غير عابىء بهرائه وتعسفه، باحثاً في كل ليلة عن أصدقاء حياتي لرتشف معاً الكؤوس المعتادة ولنحن دون عزاء إلى رائحة الجوافة . وهذا هو أفدح المظالم: فالآخر هو الذي ينعم بالشهرة، وأنا الذي يتخوزق بالحياة .

التخاطر اللاسلكي

في ليلة مضت، روى لي اخصائي أعصاب فرنسي، وباحث مثابر، انه اكتشف وظيفة من وظائف الدماغ البشري يبدو انها ذات أهمية بالغة. وكان يواجه مشكلة واحدة فقط: لم يستطع أن يحدد فائدتها. سألته، بأمل يقيني، إذا كان هناك احتمال ما بان تكون تلك الوظيفة هي تنظيم النبوءات، والأحلام الاستشرافية وتوارد الخواطر. فكان رده الوحيد ان نظر إلي نظرة مشفقة.

لقد رأيت مثل تلك النظرة قبل ثمانية عشر عاماً، حين وجهت سؤالاً مماثلاً إلى صديق عزيز، وهو باحث أيضاً في الدماغ البشري في جامعة مكسيكو. وكان رأيي، منذ ذلك الحين، أن التخاطر وأساليبه المختلفة ليس من شؤون المشعوذين، كما يظن الجاحدون، وانما هو ملكة عضوية بسيطة يرفضها العلم، لأنه لا يعرفها، مثلما رفض نظرية كروية الأرض حين كان يسود الاعتقاد بأنها مسطحة. وكان صديقي، إن لم تخني الذاكرة، يقرباً جزءاً ضئيلاً من الدماغ البشري فقط هو الذي تم التأكد من وظائفه وإثباتها بالكامل، لكنه يرفض الاقرار بوجود بقعة في بقية تلك الكتلة الهلامية مهمتها استشفاف المستقبل.

كنت أمازحه بمداعبات تخاطرية، فيفندها على أنها محض مصادفات، رغم ان بعضها كان يبدو شديد الوضوح. ففي احدى الليالي اتصلت به هاتفياً كي يأتي لتناول الطعام في بيتنا. وبعد المكالمة فقط انتهت إلى أنه لا يوجد في المطبخ ما يكفي من الأشياء. فعادت الاتصال به لأطلب منه أن يحضر لي معه

زجاجة نبيذ من ماركة لم تكن من الأنواع المتداولة ، وقطعة سجق . وصاحت ميرسيدس من المطبخ طالبة أن أقول له ان يحضر كذلك صابوناً لجلي الأطباق . لكنه كان قد خرج من بيته . وفي اللحظة التي أعدت فيها وضع سماعة الهاتف ، راودني احساس صاف بان صديقي ، وباعجوبة يصعب تفسيرها ، قد تلقى الرسالة . فكتبت ذلك على ورقة كي لا يشك في روايتي . ولمجرد اللمسة الشعرية فقط ، أضفت انه سيحمل معه وردة أيضاً . بعد ذلك بقليل وصل وزوجته ومعهما الأشياء التي طلبناها ، بما في ذلك صابون من النوع ذاته الذي نستخدمه في بيتنا . قالوا لنا وكأنهما يعتذران : « شاءت المصادفة أن يكون السوبرماركت مفتوحاً ، فرأينا أن نحضر لكم هذه الأشياء » . لم يكن ينقص سوى الوردة . وفي ذلك اليوم بدأنا ، صديقي وأنا ، حواراً مختلفاً لم ينته حتى الآن . للمرة الأخيرة التي التقيته فيها ، منذ ستة شهور ، كان يكرس جهوده لتحديد مكان توضع الوعي في الدماغ . ان الحياة تتجمل بمثل هذه الأسرار أكثر مما قد يخطر ببال أحدنا . فعشية اغتيال يوليوس قيصر ، رأت زوجته كالبورنيا وهي مدعورة أن جميع نوافذ البيت تُفتح معاً بعنف ، دون أن تكون هناك ريح ودون أن يشير فتحها أية ضجة . بعد ذلك بعدة قرون ، نسب الروائي ثورتون ويلدر إلى يوليوس قيصر عبارة لا وجود لها في مذكراته الحربية ولا في مدونات بلوتاركو وسويتونيوس التاريخية الأخاذة ، لكنها تحدد أفضل من كل ما عداها الشرط الانساني للإمبراطور : « أنا الذي أحكم كل هؤلاء الرجال ، تحكمني عصافير ورعود » . وتاريخ الانسانية - مذ كان الفتى يوسف يفسر الأحلام في مصر - مليء بمثل هذه الومضات الخرافية . أعرف توأمين متشابهين تماماً أحسا بالم في الضرس ذاته وفي الوقت ذاته وهما في مدينتين متباعدين ، وحين يكونان معاً يراودهما احساس بأن أفكار أحدهما تتداخل بأفكار الآخر . ومنذ سنوات طويلة ، تعرفت في إحدى بقاع ساحل الكاريبي على مداويفاخربانه قادر على معالجة بهيمة عن بُعد إذا ما بينوا له أوصافها ومكان وجودها بدقة . وقد تأكدت من ذلك بعيني هاتين : رأيت بقرة متعفنة ، والديدان تتساقط حية من

قروحها، فيما المداوي يتلودعاء سرياً على بعد عدة فراسخ منها. لكنني لا أذكر رغم ذلك سوى تجربة واحدة تحملت فيها هذه القدرات على حمل الجدد في التاريخ المعاصر، وقد قامت بتلك التجربة قوات الولايات المتحدة البحرية التي لم تكن لديها وسائل للإتصال مع الغواصات الذرية المبحرة تحت طبقة الجليد القطبية، فقررت محاولة الإتصال عن طريق التخاطر. حاول شخصان، أحدهما في واشنطن والآخر في الغواصة، التوصل إلى انسجام بينهما وإقامة نظام لتبادل الرسائل الذهنية. وكانت التجربة فاشلة بالطبع، لأن التخاطر أمر عفوي لا يمكن ضبطه، ولا يقبل أي نوع من المنهجية. وتلك هي وسيلته الدفاعية. فكل ما هو تكهن، ابتداء من النبوءات الصباحية وحتى «دهور» نوستراداموس، يأتي مشقراً منذ ادراكه، ولا سبيل إلى فهمه إلا حين يكتمل. ولولم يكن كذلك لهزم نفسه بنفسه مقدماً.

إنني اتكلم في الأمر بكل هذه الخصوصية لأن جدتي لامي كانت العلامة الأكثر جلاء على الإطلاق بين جميع من عرفتهم في علم التكهن. كانت كاثوليكية من الجيل الذي مضى، أي انها ترفض كل محاولة للتنبؤ بالمستقبل عن طريق مهارات منهجية، سواء أكانت أوراق اللعب، أو خطوط راحة اليد، أو استحضار الأرواح. لكنها كانت استاذة في تكهناتها. انني أذكرها وهي في مطبخ بيتنا الكبير في اراكاتا، ترصد العلامات السرية في أرغفة الخبز الشذية التي تُخرجها من الفرن.

في أحد الأيام رأت الرقم (٠٩) مكتوباً في بقايا الدقيق، فقلبت السماء والأرض إلى أن وجدت بطاقة يانصيب تحمل هذا الرقم. خسرت. إلا أنها ربحت في الأسبوع التالي غلاية قهوة تعمل بالضغط، بطاقة كان جدي قد اشتراها في الأسبوع السابق ونسيها في جيب سترته، وكان رقمها هو (٠٩). كان لجدي سبعة عشر ابناً ممن كانوا يطلقون عليهم في ذلك الحين تسمية الأبناء الطبيعيين - وكان أبناء الزواج النظامي هم أبناء اصطناعيون، وكانت جدتي

تعتبرهم مثل أولادها . كانوا متفرقين على طول المنطقة الساحلية ، لكنها كانت تتحدث عنهم جميعاً في ساعة تناول الفطور، وتشير إلى صحة كل واحد منهم وإلى وضع تجارته وأعماله وكأن لديها اتصالات مباشرة وسرية معهم . كان ذلك الزمن الرهيب هوزمن البرقيات التي تصل في وقت لا تخطر فيه على بال أحد وتدخل البيت مثل ربح رعب، تنتقل من يد إلى يد دون أن يجرؤ أحد على فتحها، حتى ترد إلى ذهن أحدهم الفكرة الملهممة بجعل طفل صغير يفتحها، وكأن للبراءة القدرة على تغيير لعنة الأخبار المشؤومة .

لقد حدث ذلك في بيتنا ذات يوم، وقرر البالغون المبهورون أن يتركوا البرقية مثل جمر متقدة، دون فتحها، إلى أن يعود جدي . أما جدتي فلم تتأثر، وقالت : «إنها من برودينثيا اغواران تخبرنا فيها بقدموها . لقد حلمت الليلة أنها آتية في الطريق إلينا» . عندما رجع جدي إلى البيت لم يكن بحاجة حتى لفتح البرقية، فقد جاءت معه برودينثيا اغواران التي وجدها مصادفة في محطة القطار، وكانت ترتدي فستاناً مزيناً بعصافير وتحمل باقة ضخمة من الأزهار، وكانت مقتنعة تماماً من أن جدي قد ذهب إلى المحطة استجابة لسحر برقيتها الأكيد .

ماتت الجدة عن نحو مئة سنة دون أن تكسب اليانصيب . أصيبت بالعمى وصارت تهذي في أيامها الأخيرة حتى أصبح من المستحيل متابعة خيط عقلها . وكانت ترفض خلع ملابسها لتنام ما دام المذياع مفتوحاً، رغم أننا كنا نوضح لها كل ليلة أن المذياع غير موجود في الغرفة . كانت تظن أننا نخدعها، لأنها لم تستطع أن تصدق أبداً أنه يمكن لآلة شيطانية أن تُسمعنا صوت أحد يتكلم من مدينة أخرى نائية .

مصاعد الأربعاء

في فيلم حياة ارتشيبالدودي لا كروز - للمخرج الخالد لويس بونويل - يقع حادث رهيب حين تدخل راهبة من باب مصعد ، ولا يكون المصعد موجوداً في ذلك الطابق ، فتتهوي المرأة التعيسة إلى قاع الهوة وهي تطلق صرخة رعب . ومنذ زمن بعيد نشرت إحدى الصحف خبراً عن ميكانيكيين متخصصين في اصلاح اعطال المصاعد كانا يحاولان اصلاح واحد منها ويعملان في قاع مسار المصعد ، وفجأة هوى المصعد دون ان يوقفه عائق وهرسهما . وأعرف ابنة زوجين صديقين حُبست لمدة ساعتين في مصعد مظلم وهي في الثانية عشرة من عمرها ، ولم تشف من الرعب منذ ذلك الحين ، رغم كل العلاجات الطبية والسيكولوجية التي اخضعت لها . فالصغيرة - ولنقل الأمر بأقل ما يمكن من الدراماتيكية - أصيبت بالجنون .

ومع ذلك ، فإن أكثر القصص التي سمعتها عن المصاعد رعباً هي تلك التي حدثت في كاراكاس منذ سنوات طويلة . كانت هناك اسرة تعيش في بيت من ثلاثة طوابق مزود بمصعد ، وذهب أفراد تلك الأسرة إلى أوروبا لقضاء ثلاثة شهور . وقبل خروجهم فصلوا الكهرباء عن البيت من جهاز التحكم الذي عند المدخل كما يفعلون عادة .

كانت إحدى الخادومات قد بقيت في الطابق العلوي لترتيبه ، بعد أن اتفقت مع أصحاب البيت على انها ستنزل على الدرج حين تنتهي ، وستقفل الباب

الخارجي بالمفتاح ، وستردد على البيت مرة كل اسبوع لتنظفه أثناء غيابهم . لكنها تذكرت كما يبدو أمراً مستعجلاً في اللحظة التي خرج فيها أصحاب البيت ، وحاولت اللحاق بهم بسرعة في المصعد ، ففاجأها انقطاع التيار الكهربائي وهي في منتصف الطريق ، ولم يعلم أحد بذلك إلا بعد مرور ثلاثة شهور ، حين رجعت الأسيرة من أوروبا ووجدت البقايا المتفسخة في المصعد . لا يستطيع إلا أن أفكر بهذه القصة وغيرها كثير من القصص المرعبة كلما اضطررت إلى دخول مصعد . لقد كنت أشعر فيما مضى بكثير من الطمأنينة عند استخدام المصاعد الحديثة المزودة بهاتف لطلب النجدة في الفنادق الغالية والعمارات الفخمة . لكن ثقتي ما لبثت أن تبخرت في أحد الأيام حين رفع شخص كان معي في المصعد سماعة الهاتف ليُخبر عن توقف طارئ ولم يرد عليه أحد . التفسير الذي قدموه إليه يومها هو أن الشخص المكلف بالرد على ذلك الهاتف كان قد ذهب لتناول الغداء عند حدوث العطل ، الذي كان - لحسن الحظ - طفيفاً . منذ ذلك الحين اعتدت أن أتقصى عن سماع صوت أجهزة الانذار ذات الأزرار الحمراء التي تحمل رسم جرس أحمر اللون في جميع مصاعد العالم ، وكان عليّ في معظم الحالات أن أرضى بعدم نفعها في شيء سوى منح الراكبين احساساً بالأمان لا أساس له في الواقع .

فالحقيقة هي أن معظم هذه الأجراس لا ترن في أي مكان ، لأنها لا تعمل في الواقع إلا في مخيلة الراكبين الواهمين . لكن أحداً لا يعرف ذلك لأن أحداً لم يضطر إلى استخدامها خلال زمن طويل . لقد أخبرني ميكانيكي مصاعد في مكسيكو منذ زمن قريب انه لا بد اثناء خدمة الصيانة النظامية من فحص حالة أجراس الانذار ، لكنهم لا يفعلون ذلك دوماً ، لأن الميكانيكيين قد اعتادوا على المصاعد لدرجة انهم ما عادوا يهتمون بعدم عمل جهاز الانذار . ثم أن أجهزة الانذار - كما قال لي أحدهم - عديمة الجدوى في معظم الحالات ، لأنها جميعها تعمل بالكهرباء ، وقلما يحدث في المصاعد عطل ليس مرتبطاً بانقطاع التيار الكهربائي .

ولهذا فإن اجهزة الانذار تتوقف عن العمل للأسباب نفسها التي أوقفت المصعد عن العمل .

في العمارات السكنية ، وحتى في اكثرها فخامة ، يرن الجرس عادة في غرفة البواب الذي يملك مفتاحاً عادياً يفتح به باب المصعد في لحظة واحدة . والمشكلة هي ان البواب لا يتواجد أمام بابه على الدوام ، حتى ولو كان اسمه يشير إلى ذلك . ويتمتع أكثر هؤلاء البوابون نشاطاً بامتيازات كثيرة - وهم يستحقونها - كالخروج للراحة مع أسرهم في نهاية الأسبوع . فمنذ أيام ، وفي عمارة سكنية في برشلونة ، اكتشفت بالصدفة أن البواب لا ينام في حجرته ، وانما في بيت أسرته ، هذا يعني انه إذا ما حُبس أحدهم في المصعد ، فإن أفضل ما يمكنه عمله هو النوم على الأرضية حتى السابعة صباحاً ، هذا إذا كان محظوظاً - أم عاثر الحظ؟ - بوجوده وحيداً في تلك المحنة ، وإذا لم تحدث النكبة في عز الشتاء ، لأن الصباح لن يطلع عليه حينئذ إلا وهو متجمد .

في بناية سكنية في باريس ، تساوي وزنها ذهباً ، صارت جميع الخدمات فيها حديثة جداً إلى حد الاستغناء عن البوابة التي تعتبر واحدة من أقدم المؤسسات وأعرقها في المدينة . فبوابات باريس كن يتمتعن حقاً بشهرة واسعة في أزمنة مضت ، حتى أن الأدب الفرنسي ، وليس أدب بلزاك وحده ، وانما روايات المجرمين والتحريرين بشكل خاص ، كان لا بد له من اللجوء اليهن كي تبدو أكثر القصص خيالاً وكأنها حقيقية . فيمكن لشهادة بوابة عن أحد سكانها أن تكون حاسمة أمام السلطة القضائية . لكن أعداداً متزايدة من بوابات باريس يستبدلن في كل يوم يمبراختراعات الكترونية غير آدمية ، واكثر فعالية بكثير من اسلافها العجائز النزقات . لكن هذه الاختراعات تبقى عاجزة على أي حال عن اخراج ساكن بائس يُحبس في المصعد . وقد حُلّت مشكلة جهاز الانذار في العمارات التي لا بوابة فيها ، بوضع الجرس في شقة المسؤول عن العمارة ، وهو منصب مؤقت ودوري ، ومن يتولاه ليس ملزماً بالطبع بالبقاء في بيته منتظراً أن يتعطل المصعد

بأحدهم . والحقيقة الأخيرة هي ان عزلة المصعد من اكثر العزلات ترويعاً لأولئك الذين يعانون من جنون الحبس ، ويعرفون انهم قادرون على تحمل أي شيء باستثناء الحبس في المصعد ولو للحظة واحدة .

إن أجدادنا الذين كانوا أكثر صرامة ، كانوا في الوقت ذاته أكثر انسانية في فهمهم للحياة . وما كان ليخطر ببال أحد منهم اختراع مصعد مثل هذه المصاعد الشائعة في أيامنا ، والتي يقوم الأمان فيها على كل ما هو مناقض لما يريده المرء للإحساس بالأمان . انها نعوش مصفحة . ففي نيويورك ، حيث يوجد حقاً وعي عال لمخاطر المصاعد ويجري التعامل معها كوسائط للمجازفة ، لا ينقصها إلا شيء وحيد هو وضع إعلان مضيء فيها ، كما في الطائرات : « ثبت حزام الأمان » . فحين يدخل المرء إلى مصاعد مانهاتن المزدحة ، يسمع عامل المصعد وهو يأمر الناس ، وكأنه جنرال في معركة : « قفوا مقابل الباب » . وهذا يسهل دون ريب عملية الاخلاء السريعة . لكن سبب هذه الاجراءات كلها هو أن مصاعد هذه الأيام محكمة السد . أما في الماضي ، فقد كان الاجداد يعون أن استخدام المصعد ، ومهما كان يومياً وروتينياً ، هو رحلة على أية حال ، ولا بد من القيام بها بأكبر قدر ممكن من المتعة . فكانوا يصممونها كعمل فني ، ليس في التقنية وحسب ، بل وفي النجارة أيضاً ، فيفتحون لها نوافذ من جميع الجهات لا تفيد للتنفس فقط ، وانما لرؤية المشهد الداخلي من البناء كذلك . فلا يصعد أحدهم وهو يحبس أنفاسه خشية انقطاع التيار الكهربائي ، بل يصعد وهو يرى الحياة : العاشقين الذين ينتظران عودة المصعد في الطابق الأول وهما يتبادلان القبلات ؛ والعجوز المقعدة التي تتظاهر بانها تطرز أمام باب بيتها المفتوح في الطابق الثاني ، بينما هي تستمتع في الحقيقة بالحياة التي تصعد وتنزل في المصعد ؛ أو صخب الطفل الذي يقول لنا وداعاً ملوحاً بيده وهو يرانا نمر مروراً عابراً من الطابق الثالث . لقد انتهى كل هذا مع صناديق هذه الأيام الفولاذية ، التي لم تبق لها سوى مزية واحدة - لأنه لا بد لها من مزية ما - ذلك أنها في حالة مستعجلة ، وهو ما يحدث بكثرة تفوق ما يظنه

أحدنا، يمكن للعشاق أن يضغطوا زر المكبح ليهارسوا حباً على المواقف مثل حب
ديك كتيب، بينما يكون هناك في الطوابق الوسطى، من يشتم ويلعن مصاعد
الأربعاء^(١) هذه التي تتعطل فجأة وفي أي مكان، دون اذن من أحد. ولحسن الحظ
أن الأشياء التي لا تنفع في شيء قد تكون ذات فائدة كبيرة أحياناً.

١ - استخدام لفظة اربعاء Meircoles جاء هنا بديلاً للفظـة Miorda . وهو استخدام شائع في معظم بلدان
أميركا الجنوبية، لتهذيب كلمة iorda (خراء).

فلنكن رجالاً ، ولتحدث عن الخوف من الطائرة

الخوف الوحيد الذي نعترف به نحن الأميركيين اللاتينيين دون خجل ، بل وبشيء من الاعتزاز الرجولي ، هو الخوف من الطائرة . ربما لأنه خوف مختلف ، لم يكن موجوداً منذ نشأتنا ، كما هو الخوف من العتمة أو الخوف من ظهور الخوف علينا . فالخوف من الطائرة هو أحدث أشكال الخوف ، وجد منذ اختراع الطيران فقط ، أي قبل نحو سبع وسبعين سنة . وأنا أعانيه - بكل فخر - كما لا يعانيه أحد ، وأشعر بامتنان كبير نحوه لأنني استطعت بفضلله أن أدور حول العالم في اثنتين وثمانين ساعة ، على متن جميع أنواع الطائرات ولعشر مرات على الأقل .

وعلى النقيض من مخاوف أخرى متوارثة وخلقية ، فإن الخوف من الطائرة يمكن تعلمه . انني أذكر بحنين رحلات الطيران الغنائية حين كنت في مرحلة الدراسة الثانوية ، بتلك الطائرات ذات المحركين التي كانت تطير بين العصافير ، مخيفة الأبقار ، ومفزعة بريح مراوحها الأزاهير الصغيرة الصفراء في المراعي ؛ والتي كانت تضيع أحياناً إلى الأبد بين الغيوم ، وتتحول إلى عجة ، فيصبح لا بد من الخروج في منتصف الليل للبحث عن رمادها بأكثر الأساليب طبيعية ومنطقية : على متن بغلة .

في إحدى المرات ، وكنت كاتب تحقيقات في واحدة من صحف بوغوتا ، في مرحلة لا واقعية كان عمر جميع الناس فيها عشرين سنة ، أرسلوني لمتابعة خبر مشؤوم ومعي المصور غيليرمو سانتشيث ، في واحدة من تلك الطائرات البرمائية

من طراز كاتالينا التي بقيت بعد الحرب . كنا نظير فوق غابات اورابا، جالسين على حزم المكانس، لأنه لم يكن يوجد مقاعد في تلك النعوش الطائرة، ولا مضيفة تبعث العزاء ويمكن لأحدنا أن يطلب منها رقم هاتفها في اللجنة . وفجأة دخلت الطائرة حيث ما كان عليها الدخول وتاهت وسط وابل توراتي . لم يكن المطريهطل في الخارج فقط، وإنما في داخل الطائرة ايضاً . جاءنا مساعد الطيار وهو يتمسك بجهد جهيد، حاملاً لنا جريدة لنغطي بها رؤوسنا، ولا حظنا ونحن مذهولين انه يكاد يكون عاجزاً عن الكلام، وأن يديه ترتعشان .

في ذلك اليوم تعلمت شيئاً مشجعاً للغاية : فالطيّارون يخافون ايضاً، إلا أن خوفهم، مثل مصارعي الثيران، لا يبدو في ارتعاش أيديهم كما هو شأن الخوف من الخرافات . وقد اكتشف ذلك صديق اسباني - يخاف الطائرة لدرجة أنه لا يسافر جالساً على الاطلاق - حين دعوه في ليلة نحس شتائية لمشاهدة عملية الإقلاع من حجرة القيادة . كان ذلك في نيويورك، أثناء عاصفة ثلجية . وبقي أفراد الطاقم رابطي الجأش وهم في طائرتهم عند بداية المدرج، إلى أن أصدروا إليهم الأمر بالإقلاع . حينئذ، وكما لو كان ذلك واجباً فنياً لا بد منه، رسموا جميعهم إشارة الصليب معاً في حركة ايقاعية متطابقة . وصديقي الذي أدرك في أعماق روحه عندها ان الطيارين يخافون ايضاً، تخلص وإلى الأبد من الخوف من الطائرة .

أما أنا فقد وقعت في تجربة أكثر ايماء أثناء طيراني بين النجوم، فوق المحيط الأطلسي . كنت أتحدث مع قائد الطائرة حول جميع الأمور، وسألته خلال الحديث عن صديق آخر طيار، كان زميلي في المدرسة، وكنت أجهل بطبيعة الحال انه قد تهشم وقضى نحبه في مطار تينيريفي وهو يحاول الهبوط وسط عاصفة . فأخبرني قائد الطائرة بذلك بطريقة - أخرى، لكنها أكثر كشفاً :

لقد تقاعد عن الشركة منذ ثلاث سنوات، في جزر الكناري . ومع ذلك، ليست هناك علاقة بين الخوف من الطائرة طيب الذكر والكوارث الجوية . وقد عبر بيكاسو عن ذلك بشكل جيد : «أنا لا أخاف الموت،

لكنتني أخاف الطائرة». بل وأكثر من ذلك، فهناك كثيرون ممن يخافون الطائرة، تخلصوا من هذا الخوف بعد نجاتهم من كارثة. أما أنا فأصبت بعدواه وكأنها التهاب لا شفاء منه أثناء رحلة في منتصف الليل من ميامي إلى نيويورك، في واحدة من أولى الطائرات النفثة. كان الجوع على ما يرام والطائرة مستقرة في السماء، وإلى جانبها تلك النجمة المنفردة التي ترافق دوماً الطائرات الخيرة، وكنت أتأملها من النافذة بالحنان نفسه الذي كان سانت - اكسوبري يرى فيه مواقد النار في الصحراء من طائرته الألمنيوم. وفجأة، في التأمل، وعيت استحالة بقاء الطائرة معلقة في الجو فيزيائياً، وأقسمت ألا أعود إلى الطيران أبداً.

وفيت بقسمي عشر سنوات، إلى أن علمتني الحياة ان الخائف الحقيقي من الطائرة ليس من يرفض الطيران، وانما من يتعلم الطيران بخوف. وهذا نوع من الفتنة. الشخص الوحيد الذي لا يطير بين جميع المشهورين الذين أعرفهم هو المعماري البرازيلي اوسكار نيماير. أما مواطنه جورج آمادوا، وهو من أشد هيابي الجو، فقد كانت لديه الجسارة الشاعزية للطيران في طائرة كونكورد من باريس وحتى نيويورك، ليستقل من هناك سفينة تنقله إلى ريودي جانيرو. أما الكاتب الفنزويلي ميغيل اوتير وسيلفا والمخرج السينمائي البرازيلي روي غيرا، فقد وصلا، وعبر طريقين مختلفين إلى أن الوسيلة الوحيدة لمقارعة الخوف من الطائرة هي أن يطير المرء خائفاً. أما كارلوس فوينتس، الذي لم يطر خلال خمسة عشر عاماً، وكان يقوم برحلات ملحمية تدوم ثمانية أيام، يستبدل خلالها عدة قطارات لينتقل من مكسيكو إلى نيويورك، لم يعد إلى الطيران وحسب، بل انه ذهب لالقاء محاضرة في جامعة انديانا على متن طائرة ذات محرك واحد. ولكن بين كبار الاختصاصيين بالخوف من الطائرات لم يكن هناك من هو أفضل من دون لويس بونويل الذي بقي يطير بهدوء حتى بلوغه الثمانين، رغم انه كان يموت خوفاً أثناء ذلك. فالرعب الحقيقي بالنسبة له يبدأ حين يكون كل شيء في الرحلة الطائرة

على خير ما يرام ، ويظهر فجأة قائد الطائرة بقميصه ذي الأكرام القصيرة ليذرع الطائرة بخطوات متمهلة ، محيياً كل واحد من المسافرين بابتسامة مشعة .
أمي لم تطرسوى مرتين في حياتها الطويلة . ولم تشعر بالخوف أبداً ، لكنها تعرف جيداً خوف أبنائها - وهم اثنا عشر - ، فتحتفظ لذلك بشمعة مشتعلة دوماً فوق المذبح البيتي لتحمي بها من يكون في الجومنا . ان ايمانها راسخ لدرجة أن أحد أبنائها - وهو مهندس طرق - تدهور منه بلدوزر في هوة إلى جانب الطريق منذ وقت قريب ، وسمعت أمي أثناء الحديث أن الغرامة قد تصل إلى أكثر من مئة ألف بيزو، فطلبت من أخي ألا ينفق قرشاً واحداً ، لأنها ستشعل شمعة لاجراج البلدوزر . فقال لها أخي مؤنباً : « لا يمكن أن يخطر لأحد سواك انه يمكن لشمعة أن تُخرج بلدوزراً من حفرة » .
فردت عليه أمي بثقة :

- وكيف لا تُخرجه ! إذا كانت تحمل الطائرات في الجو .

تدابير علاجية للطيران

مرة اخرى، قمت بالحماقة التي كنت قد عزمت على عدم تكرارها أبداً، وهي القفز فوق الأطلسي ليلاً ودون محطات توقف في الطريق. انها اثنتا عشرة ساعة بين معترضتين، لا تضيق خلالها الهوية وحدها، وانما المصير كذلك. وقد كانت الرحلة محكمة تماماً في هذه المرة لدرجة أن يقيناً راودني في احدى اللحظات بان الطائرة قد تتوقف فوق المحيط وان عليهم أن يأتوا بطائرة اخرى لنقلنا اليها. أعني انه كان ثمة خوف يعذبني على الدوام من أن الطائرة ستسقط، لكنني في هذه المرة أحسست بخوف جديد. الخوف من بقاء الطائرة معلقة في الجو إلى الأبد.

في تلك الظروف البغيضة أدركت السبب في كون الوجبة التي يقدمونها في الجوزات طبيعة مختلفة عن تلك التي نأكلها على اليابسة. ذلك أن الفروج أيضاً - وهو ميت ومشوي - يطير خائفاً، وفقاعات الشمبانيا تموت قبل موعدها، والسلطة تذبل في كآبة مختلفة. ويحدث شيء مماثل بالنسبة للأفلام السينمائية. فقد رأيت أن مغزى بعض الأفلام يتبدل حين تُشاهد في الجو، لأن روح الممثلين تقاوم جاهدة لتكون هي ذاتها، لكن الحياة بمنطقها الخاص، تنتهي إلى عدم الاقناع. لذلك ليس ثمة احتمال في أن يكون أي فيلم جيداً في الطائرة. بل أكثر من ذلك: فكلما كانت الأفلام طويلة وعملة، يكون المرء أكثر امتناناً، لأنه يجد نفسه مكرهاً على تخيل أكثر مما يراه وابتداع أكثر مما يستطيع رؤيته بكثير، وكل هذا يساعد في تجاوز الخوف.

وأمثال هذه التدابير لا تحصى . فلدي صديقة لا تجد إلى النوم سبيلاً قبل عدة أيام من سفرها، لكن خوفها يتلاشى تماماً حين تحبس نفسها في مرحاض الطائرة . فتبقى هناك ما يتاح لها من الساعات وهي تقرأ باطمئنان لا يمكن مقارنته إلا بحديقة الإعصار، إلى أن تجبرها سلطات الطائرة على العودة إلى رعب مقعدها . انه لأمر غريب، لأنني كنت أظن دوماً أن نصف الخوف من الطائرة يأتي من ضيق النفس بالحبس، وهو احساس لا يمكن الشعور به في أي مكان بمثل قوة الشعور به في دورات المياه . أما في مراحيض القطارات، فثمة احساس بالحرية لا مثيل له . حين كنت طفلاً، كان أكثر ما يفتني من الرحلات في قطارات الموز هو النظر إلى الدنيا من خلال فتحة مرحاض العربات، واحصاء عدد النائمين بين ضيعتين، ومباغطة الحراذين المرتعدة بين الأعشاب، والصبايا اللواتي يظهرن لهنية وهن يستحمن عاريات تحت الجسور . والمرة الأولى التي ركبت فيها طائرة - وكانت طائرة بدائية ذات محركين، من تلك التي تقطع ألف كيلومتراً في ثلاث ساعات ونصف - فكرت، ببراءة، انني سأرى من خلال فتحة المرحاض حياة أكثر ثراء من تلك التي تظهر في القطار، فسوف أرى ما يجري في فناء البيوت، وسأرى الأبقار التي تمشي بين شقائق النعمان، وفهد هيمنغواي متحجراً بين ثلوج كليسمانجارو . لكن ما وجدته كان تأكيداً محزناً على أن تلك العين على الحياة هي عين عمياء، وأن عملاً بسيطاً مثل افلات دفقة الماء كان يتطلب مجازفة تصل إلى حد الموت .

لقد تجاوزت منذ سنوات طويلة الوهم الشائع في أن المشروبات الكحولية هي وسيلة ناجعة لعلاج الخوف من الطائرة . فبمقتضى معادلة اللويس بونويل، كنت أشرب جرعة من المارتيني السك قبل الخروج من البيت، وجرعة أخرى في المطار وثالثة لحظة الإقلاع . فكانت اللحظات الأولى من الطيران تمضي بالطبع في حالة من النشوة يكون مفعولها معاكساً لما هو مطلوب . إذ تصبح الطمأنينة واقعية وشديدة لدرجة أن المرء يتمنى لو أن الطائرة تسقط ليعود إلى التفكير بالخوف

ثانية . وتقود التجربة أحدنا لأن يتعلم أن الكحول هو متواطىء في الرعب أكثر مما هو علاج للخوف . فليس هناك ما هو أسوأ منه في الرحلات الطويلة : فقد يستكين أحدنا مع الجرعتين الأولين ، ويسكر مع الجرعتين الأخريين وينام مع تاليتيهما ، مخدوعاً بوهم انه نائم في الواقع ، ويستيقظ بعد ثلاث ساعات واثقاً من انه لم ينم سوى ثلاث دقائق وانه لا وجود لشيء آخر في المستقبل سوى وجع رأس سيستمر لعشر ساعات .

أما المطالعة - العلاج النافع لشور كثيرة على الأرض - فهي ليست كذلك في الجوبائي حال من الأحوال . إذ يمكن للمرء أن يبدأ بقراءة أفضل الروايات البوليسية حبكة ، وينتهي منها دون أن يعرف من قتل من ولا لماذا قتله . ولقد كنت على قناعة دوماً من أنه ليس هناك من هم أكثر خوفاً في الطائرات من أولئك السادة الذين يُظهرون عدم تأثرهم ويقرأون دون أن يطرف لهم جفن ، بل ودون أن يتنفسوا ، فيما المركبة تغوص في الأجواء المضطربة . وقد عرفت واحداً من هؤلاء ، كان جاري في المقعد ، في ليلة طويلة من نيويورك إلى روما ، عبر أجواء القطب الشمالي الوعرة ، ولم يقطع قراءته في الجريمة والعقاب ولولتناول العشاء كان يقرأ الرواية سطرّاً سطرّاً وصفحة صفحة ، ولكنه قال وهو يتنهد ، في موعد تناول الفطور : « يبدو لي أنه كتاب مهم » . ومع ذلك ، يؤكد الكاتب الاروغواي كارلوس مارتينيث مورينوانه لا يوجد ما هو أفضل من الكتاب للطيران . فقد طار خلال عشرين سنة وهو يحمل معه دوماً النسخة شبه المهترئة ذاتها من دام بوفاري ، متظاهراً بقراءتها رغم انه صار يعرفها عن ظهر قلب تقريباً ، لقناعته في أنها تدبير مؤكد ضد الموت .

أما أنا فلم أفكر يوماً بوسيلة أكثر فعالية من الموسيقى ، ولكن ليس تلك التي تُسمع من أجهزة الطائرة ، وانما التي أحملها في أشرطة تسجيل وساعة . الحقيقة أن الموسيقى الطائرة تؤدي إلى مفعول معاكس . ولقد كنت أتساءل مذهولاً على الدوام : من هم الذين يختارون البرامج الموسيقية للرحلات الجوية ، لأنني لا

أستطيع أن أتصور من هو أقل إلماماً منهم بالخصائص العلاجية للموسيقى . فهم يفضلون ، وبمعايير شديدة التبسيط ، الموسيقى الاوركستريّة الكبرى ذات العلاقة بالسماء وبالفضاء اللامتناهي وبالظواهر الأرضية . «اوركسترات سميكّة الجلود» ، كما كان يطلق براهمز على أعمال بروكنير . أما أنا فلدي موسيقيّاتي الشخصية للطيران ، ولن يكون لتعدادها من نهاية . لديّ برامجي الذاتية ، حسب خط الرحلة ومدتها ، وحسبها إذا كان الوقت نهراً أم ليلاً ، وكذلك حسب الطائرة التي أطيّر فيها . فمن مدريد إلى بويرتوريكو ، وهي رحلة مألوفة للأميركيين اللاتينيين ، يكون البرنامج دقيقاً ومحكماً : سيمفونيات بيتهوفن التسع . وكنت أظن - كما قلت من قبل - انه لا وجود لتدبير أكثر فعالية من الموسيقى للطيران ، حتى هذا الأسبوع من تعاستي ، حين كتب إليّ قارئ من اليكانتي قائلاً انه اكتشف أسلوباً آخر أفضل : ممارسة الحب لمرات عديدة ، قدر الإمكان ، أثناء الطيران .

الحب في الجو

الرحلات - مثل السُلطة - مهيجة للشهوات . ولو ان مذكرات الملاحين تقول الحقيقة كلها، وليس الحقيقة فقط، لكانت نصوصاً مثالية في الأدب المحظور. لهذا السبب بالذات يستحيل العثور فوق سطح بواخر الركاب على ركن واحد غير مضاء في الليل، والمجربون في الرحلات السياحية البحرية، وخصوصاً في الكاريبي، ينصحون المستجدين باصطحاب مفتاح انكليزي معهم لتكسير المصابيح .

لقد كانت القطارات الأوروبية القديمة، ولسنوات طويلة، عبارة عن فنادق للمتعة على عجلات .

وقطار الشرق السريع، فضلاً عن كونه مسرحاً لجرائم دون حل ومخبراً للجواسيس، كان فردوساً ليلياً حبلت في مقصوراته اللامحدودة أكثر من ثلاثة رؤوس متوجة . وفي مترو مدينة مكسيكو، كان لا بد للسبب ذاته، وفي وضع النهار، من تخصيص عربات منفصلة للرجال وللنساء، ليس في ساعة انخفاض الإزدحام، بل على العكس تماماً: في أشد ساعات الازدحام .

أما الطائرات، فقد اعتبرت لسنوات طويلة مكاناً يحظر الحب فيه . بل ان حزاماً في المقعد كان يبدو لنا وكأنه بديل مهذب لحزام العفة . وربما كرد فعل على هذا العقاب شاعت الخرافة العالمية عن المضيفات سهلات المنال، اللواتي نسبت اليهن نجيلتنا المراهقة اتقان جميع أنواع الممارسات الشبقة . وحدث منذ سنوات

طويلة أن اشيع في بارانكيا أن بيتاً للدعارة سيفتح في الحي الراقي من المدينة لتبيع فيه متعهن أجمل خادماوات الجو ممن يعملن في شركات الطيران العالمية . وقد ذهبنا جميعنا في تلك الليلة بالذات : ابتداء من السيد المحافظ وبطانته كلها وحتى أدنى الصحفيين أجراً . ووجدنا هناك بالفعل سرباً من الفتيات الفاتنات بأزياء تحمل اشارات جميع أجواء العالم : أسوجيات شركة «ساس» وألمانيات «لوفتهانزا» وأمازونيات «بان اميركان» الكونيات . وكانت تراودنا رغبة جامحة في أن تكون تلك الأكذوبة الكبيرة صحيحة وحقيقية، حتى ان معظمنا تظاهربانه لم ينتبه إلى انهن جميعاً خلاسيات مثل خلاسياتنا، وانهن يتكلمن القشتالية دون لكنة، وبلهجة تشبه إلى حد يعجز عنه الوصف اللهجة المتداولة في مصنع الأحلام الذي تملكه بيلار تيرنيرا .

المرّة الأولى التي سمعت فيها حديثاً جديداً عن امكانية ممارسة الحب في طائرة كانت في بارانكيا، وكنت أشرب الروم الأبيض مع قشور الليمون برفقة طيار ألماني مجرب، تقاعد من عمله عندما اخترعوا المحرك النفث، لأنه لم يكن قادراً على أن يتصور كيف يمكن للطائرات أن تطير دون مراوح . وكان هو من أخبرني انه في طائرات كونستيليشن الفخمة التابعة للشركة توجد أسرة قابلة للطي، كتلك التي في مقصورات القطارات، وانه لم يكن هناك من يسأل عما يفعله المسافرون فيها ممن يستأجرونها للنوم . والحقيقة أن من صمم تلك الأسرة هو «هوارد هوغس» مخترع طائرة الكونستيليشن، وذلك لاستخدامه الشخصي مع نجمات السينما اللواتي كان يصممهن أيضاً . وكان لا بد من انقضاء سنوات طويلة قبل أن يجرؤ فيلم سينمائي على اظهار ممارسة جنسية على متن طائرة . وقد شوهد ذلك لأول مرة في فيلم ايمانويل . وكان حباً شاقاً جداً ومثبطاً للعزيمة، وبدا أشبه بتجربة لتأكيد استحالة ممارسة الحب أثناء الطيران .

أما في الوقت الراهن، فيراه المسافرون في طائرات الجيت - سيت أمراً عادياً، ويمارسونه بكثرة وتلقائية كما في الحياة الواقعية . ففي الولايات المتحدة توجد

جمعية مدنية تدعى «ميل هاي كلوب» Mile High Club ، يُقبل في عضويتها جميع من أثبتوا أنهم مارسوا الحب على ارتفاع يتجاوز الميل . وأعضاء الجمعية كثيرون ؛ وجميعهم يتفوقون على ان الصعوبة الوحيدة في المسألة ، كما في مسائل اخرى كثيرة ، هي البداية . وهناك أيضاً رحلة جوية ليلية من لوس انجلوس إلى ميامي أو من لوس انجلوس إلى نيويورك ، واسمها يكشف تماماً عن طبيعتها : «رد آيز اكسبريس» Red Eyes Express ، أي اكسبريس العيون الحمراء . ومدة الرحلة سبع ساعات ، لكن الشيء الوحيد الذي لا يسمح به أحد هو النوم ، وذلك لكي يصل المسافرون إلى وجهتهم وعيونهم تتقد من قصف الليل .

الفرق بين الرد آيز اكسبريس والرحلات التجارية العادية - إضافة إلى أسعار البطاقات ، المخفضة جداً - هو انه لا وجود في الأولى لأي نوع من الرقابة . فلا سلطة فيها سوى سلطة الطيارين الذين يقضون الرحلة في مقصورة القيادة المغلقة ، كي لا يصلهم رذاذ اغراء ابتكارهم . ويحمل المسافرون طعامهم وشرابهم ، ومغدراتهم وموسيقاهم الشخصية ، ويكون كل منهم سيداً مطلق السيادة على جسده ، أي أن كل واحد منهم يمضي في رحلة اخرى ضمن الرحلة .

لا أحد يسأل أحداً هناك عما يكون ، ولا من أين أتى . ففي تلك الرحلات البابلية مطفأة الأنوار ، يكون الجنس هو أبسط ما يحدث .

هناك خطأ شائع حين يدور الحديث حول هذه الأمور ، وهو التفكير بدورات المياه في الطائرة . بل ويوجد كاتالوج مزود بصور توضيحية ، يشير إلى مختلف الأوضاع الاكروبياتية لممارسة الحب في مراحيض طائرات شركات الخطوط الجوية الكبرى . وتشير الصور إلى نقاط الاستناد حسب السن والاذواق ، وقد بلغت حوالي ١٦٢ وضعية على الطريقة الغربية .

وقبضة الأمان وحدها ، التي يمسك بها المرء كي لا يقع أثناء استخدامه

التقليدي للمرحاض ، تفيد في أربعة وسبعين أمراً آخر، حسب ذلك الكاتالوج .
هذا يعني أن لمرحاض الطائرات محاسن ديمغرافية تفوق محاسن السيارات ،
رغم أن الاحصائيات تشير إلى ازدياد يومي في عدد الأطفال الأذكاء وبلا كسور
الذين يُجبل بهم في السيارات ، والتي تكون سائرة في معظم الأحيان .

ويرى المجربون مع ذلك أن دورات المياه في الطائرات هي أماكن شائعة
الاستخدام ومعروفة لممارسة الحب مثلما هي الأسرة المخصصة لسيناتورات
الجمهورية . أما المكان المثالي فهو مقاعد الطائرة ، بعد رفع المسند الفاصل بينها .
والبرهان القاطع على ذلك قدمه ارنولد شوارزنيغر ، السيد يونيفرس المتوحد -
والذي قيل عنه يوماً إنه من الفريق الآخر- ، فقد سافر مع خطيبته قبل ثلاث
سنوات في رحلة ليلية من لوس انجلوس إلى نيويورك ، ولم تستطع الخطيبة كما يبدو
أن تغفول للحظة واحدة . والمضيغة التي كان عليها أن تقوم بخدمتها قالت
للسحافة فيما بعد : « الشيء الوحيد الذي رأيته منها طوال الرحلة هو أقدامهما » .
وهكذا فقد يكون على حق ذلك القارئ الذي كتب إلي من اليكانتي قائلاً
إن الحب هو العلاج الأكثر نجاعة للتخلص من الخوف في الطائرة . وفعلاً ،
فالعلماء يقولون إنه لا وجود لمهدى أفضل منه للجسد . ثم إذا ما فكر أحدنا بالأمر
جيداً ، فلن يجد هناك ما يثبت تحريم محاولته في الطائرات . فالتدخين ممنوع أثناء
الإقلاع والهبوط ، وفي بعض اجزاء الطائرة ، وخصوصاً في دورات المياه ، لذلك
يوجد اعلان يضيء وينطفئ ليذكرنا بالأمر . وهذا يسمح لنا بالتفكير انه لو كانت
ممارسة الحب ممنوعة لوضعوا اعلاناً مماثلاً . بل واكثر من ذلك : ففي مخاوفي الجامعة
فوق جميع المحيطات الليلية ، كان لدي من الصبر ما يكفي لأقرأ ، ولعدة مرات ،
نص عقد الطيران المطبوع على التذاكر بخط ميكروسكوبي ، ولم أجد فيه أي بند
يحظر ممارسة أية وظيفة عضوية طبيعية . لهذا ، وإذا كنت لم تفعل ذلك حتى الآن ،
فلأنك أسأت الفهم .

تقدم إذن ، وسفراً ميموناً .

طائرة الحسنة النائمة

كانت حسنة نحيلة، ذات بشرة ناعمة لها لون الخبز وعينين مثل حبتي لوز خضراوين، شعرها ناعم وأسود وطويل يصل حتى خصرها، وبها نفحة من عراقة شرقية يمكن لها أن تكون من بوليفيا أو من الفيليبين على حد سواء.

كانت ملابسها تنم عن ذوق رصين: سترة من الكتان الأبيض، وبلوزة من الحرير مزينة بأزهار باهتة جداً، وينطال من كتان خام وحذاء مخطط طولانيا وله لون ازهار البوغامبيليا.

حين رأيتهما تقف في الصف للصعود إلى طائرة نيويورك في مطار شارل ديغول في باريس، فكرت: «هذه هي أجمل امرأة رأيتهما في حياتي». أفسحت لها الطريق. وحين وصلت إلى المقعد الذي خصصوه لي على بطاقة الصعود إلى الطائرة، وجدتني جالسة على المقعد المجاور. واستطعت أن أسائل نفسي وأنا مبهور الأنفاس: من هو عاثر الحظ منا في تلك المصادفة الرهيبة.

لقد استقرت في مكانها وكأنها ستقيم هناك لسنوات طويلة، فوضعت كل شيء في مكانه بدقة، إلى أن أصبح مجالها الخاص مرتباً ترتيباً مثالياً، حيث كل شيء في متناول يدها. وفيما هي تفعل ذلك، قدم لنا ضابط الخدمة شمبانيا الترحيب. لم تقبل تناولها، وحاولت أن تشرح شيئاً بلغة فرنسية أولية. حينئذ تحدث إليها الضابط بالانكليزية، فشكرته بابتسامة فاصلة، وطلبت منه كأس ماء، راجية، ألا يوقظوها لأي سبب طوال الرحلة. بعد ذلك فتحت فوق ركبتيها

حقيقية لوازم كبيرة ومربعة ، ذات زوايا من البرونز مثل صناديق السفر التي كانت تستخدمها الجددات ، وتناولت قرصين ذهبيين أخرجهما من انبوبة تحوي أقراصاً اخرى مختلفة الألوان . كانت تفعل كل شيء بمنهجية ورصانه ، وكأنه لا وجود لأمر غير محسوب بالنسبة لها منذ يوم ميلادها .

أخيراً ، أسندت الوسادة الصغيرة على زاوية النافذة وغطت نفسها بالبطانية حتى وسطها دون أن تنزع حذاءها واضطجعت في المقعد على جانبها ، في وضع شبه جنيني ، وأغفت دون أن تصحو لحظة واحدة ، ودون زفرة واحدة ، ودون تبدل واحد ضئيل في وضعيتها طوال الساعات السبع الرهيبة والاثنى عشرة دقيقة الزائدة التي دامت الرحلة إلى نيويورك .

لقد كنت على قناعة دوماً من أنه لا وجود في الطبيعة لما هو أجمل من امرأة جميلة . ولذا كان يستحيل عليّ الإفلات ولو للحظة واحدة من سحر تلك المخلوقة الفاتنة النائمة إلى جانبي . كان نومها مستقراً وهادئاً ، حتى أن القلق راودني في إحدى اللحظات بأن القرصين اللذين تناولتهما لم يكونا للنوم وإنما للموت . تأملتُها عدة مرات ستمتراً بعد ستمتر ، وعلامة الحياة الوحيدة التي استطعت ملاحظتها هي ظلال الأحلام التي كانت تمر فوق جبهتها مثلما تمر الغيوم فوق الماء . كانت تعلق في عنقها سلسلة ناعمة تكاد تكون غير مرئية فوق بشرتها الذهبية ، وكانت اذناها مكتملتان وبلا ثقب للأقراط ، وكان في يدها اليسر خاتم ناعم . ولأنني رأيت أنها لم تتجاوز الثانية والعشرين من العمر ، فقد واسيت نفسي بأنه ليس خاتم خطوبة عابرة وسعيدة . لم تكن تحمل رائحة أي عطر ؛ لكن بشرتها كانت تعبق برائحة خفيفة لا يمكن لها أن تكون إلا الرائحة الطبيعية للجمال . «أنت في أحلامك ، وفي البحر السفن» ، هذا ما فكرت به وأنا على ارتفاع ٢٠.٠٠٠ قدم فوق المحيط الأطلسي ، محاولاً استذكار سوناتا خيراردو ديغوا الخالدة حسب تسلسل نظمها .

«أعلم أنك نائمة ، مستقرة ، آمنة ، مسيل هجران وفي ، خط نقي ، شديدة

القرب من يديّ المكبلتين». وكانت حالتي الواقعية مشابهة للسوناتا حتى انني استعدت خلال نصف ساعة كامل بنائها في ذاكرتي : «أي عبودية مرعبة أعاني ، أنا المؤرق ، المجنون على الجروف ، فالسفن في البحر ، وأنت في أحلامك» .

مع ذلك ، وبعد خمس ساعات من الطيران ، كنت قد تأملت الجميلة النائمة كثيراً ، وبجزع شديد دون أمل ، حين أدركت فجأة أن حالتي المعنوية ليست مثل سوناتا خيراردو ديفغو ، وانما هي مثل عمل أدبي آخر عظيم ومعاصر ، وأعني به رواية بيت الجميلات النائمات ، للياباني ياسوناري كاواباتا .

لقد اكتشفتُ هذه الرواية الرائعة عبر طريق طويل ومختلف ، لكنه ينتهي على أي حال إلى جميلة الطائرة النائمة . فمنذ عدة سنوات ، وفي باريس ، اتصل بي الكاتب آلان جوفري هاتفياً ليقول لي انه يود تقديمي إلى بعض الكتاب اليابانيين الموجودين في بيته . الشيء الوحيد الذي كنت أعرفه عن الأدب الياباني في ذلك الحين ، إضافة إلى قصائد الهاي - كاي الكثيرة التي كانت مقررة في المدرسة الثانوية ، هو بعض القصص القصيرة لجونيشير وتانيزاكي المترجمة إلى الفشتالية . والحقيقة انني لم أكن أعرف شيئاً يقينياً عن الكتاب اليابانيين سوى انهم سينتهون جميعهم ، عاجلاً أو آجلاً ، إلى الانتحار . لقد سمعت عن كاواباتا لأول مرة عندما منحوه جائزة نوبل سنة ١٩٦٨ ، وحاولت حينئذ أن أقرأ شيئاً له ، لكنني نمت أثناء القراءة . وبعد نيله الجائزة بقليل نزع أحشاءه بسيف طقوسي ، تماماً كما فعل سنة ١٩٤٦ روائي آخر شهير ، هو اوسانودازاي ، بعد عدة محاولات فاشلة للإنتحار . وقبل سنتين من انتحار كاواباتا ، وبعد عدة محاولات فاشلة أيضاً ، قام الروائي يوكيو ميشيما ، وربما هو الأكثر انتشاراً في الغرب ، بتنفيذ طريقة الهاراكيري في الانتحار كاملة بعد أن ألقى خطبة وطنية في جنود الحرس الامبراطوري .

ولأن الأمر كذلك ، فإن أول ما خطر لذهني عندما اتصل بي آلان جوفروي هو عبادة الكتاب اليابانيين للموت ، فقلت له : «سأكون سعيداً بالحضور ، ولكن شريطة ألا ينتحروا» . وفعلاً ، لم ينتحروا ، بل اننا أمضينا معاً ليلة ساحرة ، أفضل

ما تعلمته خلالها هو انهم جميعهم مجانين . فقالوا لي : «لماذا السبب نود التعرف اليك» . ثم قالوا لي أخيراً بثقة انه لا تراود القراء اليابانيين أية شكوك في انني كاتب ياباني .

وفي محاولة لفهم ما عنوه بقولهم هذا، ذهبت في اليوم التالي إلى مكتبة متخصصة في باريس واشترت كل ما هو متوفر من أعمال : شاساكو ازرو، وكينزابورو أوي، وياسوشي انوو، واكوتاغوا ريونوسوكي، وماسوجي ابوسي، واوسانودازاي، اضافة إلى أعمال الكاتبين المشهورين كاواباتا وميشيما . ولم أقرأ شيئاً آخر طوال ما يقارب السنة، حتى أصبحت أنا نفسي على قناعة اليوم من أن هناك شيئاً مشتركاً بين الروايات اليابانية ورواياتي . شيء لا أستطيع تفسيره، ولم أدرك كنهه في حياة ذلك البلد خلال زيارتي الوحيدة لليابان، لكنه يبدو لي أكثر من جلي .

ومع ذلك، فالرواية الوحيدة التي تمنيت لو أكون كاتبها هي بيت الحميلات النائبات لكاواباتا، وتسروي قصة نزل غريب في ضواحي طوكيو، حيث يدفع المسنون البرجوازيون مبالغ طائلة ليستمتعوا بالحلب الأخير بطريقة مبتكرة : فهم يقضون الليل في تأمل أجمل فتيات المدينة وهم يرقدن عاريات ومنومات في السرير ذاته . وهم لا يستطيعون ايقاظهن، ولا حتى ملامستهن، مع انهم لا يحاولون ذلك، لأن سعادتهم الأكثر صفاء في تلك المتعة الشيخوخية هي في أنهم يستطيعون أن يحلموا بجوارهن .

لقد عشت هذه التجربة وأنا إلى جوار الحساء النائمة في طائرة نيويورك، لكن التجربة لم تبهجني . بل على العكس من ذلك : فالشيء الوحيد الذي كنت أتمنى حدوثه خلال الساعة الأخيرة من الرحلة هو أن يقوم ضابط الخدمة بإيقاظها كي أستعيد حريقي، وربما شبابي . لكن ذلك لم يحدث، فقد استيقظت وحدها حين حطت الطائرة على الأرض، فزينت وجهها ونهضت دون أن تنظر إلي، وكانت أول من غادر الطائرة وضاعت إلى الأبد بين الجموع . واصلت أنا الرحلة

في الطائرة نفسها إلى مكسيكو، محتفظاً بأشواقى الأولى إلى جماها وأنا جالس إلى
جوار المقعد الذي ما زال دافئاً بنومها، دون أن أستطيع أن أنزع من رأسي ما قاله
لي كتاب باريس المجانين عن كتبي . وقبل أن تحط الطائرة، حين قدموا لي بطاقة
الهجرة، ملأتها وبى شعور من المرارة . المهنة : كاتب ياباني . السن : ٩٢ سنة .

الفهرس

٥	 حسنأ؁ فلنتحدث في الأدب
٩	 كيف تُكتب الرواية؟
١٥	 في تلك الأزمنة؁ أزمة الكوكا كولا
٢١	 الريف؁ ذلك المكان الرهيب؁ حيث الدجاجات تمشي نيئة
٢٥	 بيعجي؁ أعطني قبلة
٢٩	 أنا الآخر
٣٥	 التخاطر اللاسلكي
٣٩	 مصاعد الأربعاء
٤٥	 فلنكن رجالاً ولنتحدث عن الخوف من الطائرة
٤٩	 تدابير علاجية للطيران
٥٣	 الحب في الجو
٥٧	 طائرة الحساء الناعمة

صدر حديثاً عن الأهالي

- زوبك (رواية) عزيز نسين ، ترجمة : عبد القادر عبد الله هادي العلوي
- من قاموس التراث الحب والظلال (رواية) ايزابيل الليندي ، ترجمة : صالح علماني
- دراسات في أدب عبد السلام العجيلي مجموعة من الكتاب ، تحرير : ابراهيم الجراي فريد جحا
- الحياة الفكرية في حلب في القرن التاسع عشر - أرق الليلة الفاصلة منيف حوراني
- النفق (رواية) ارنستو ساباتو ، ترجمة : عبد السلام عقيل

يصدر قريباً عن الأهالي

- سورية الجنوبية
- الجغرافية السياسية والجغرافية الاستراتيجية
- السواد «الخروج من البقارة» (رواية)
- تطور المجتمعات الشرقية
- سيولوجيا الرواية
- الشذوذ الجنسي
- مرايا صغيرة (شعر)
- تفاح الشيطان (رواية)
- ترجمة : احمد عبد الكريم ،
- ترجمة : أحمد عبد الكريم
- حسن حميد
- مجموعة من الباحثين السوفييت
- د . عبد الرزاق عيد
- د . ناجي الجيوش
- شيركوبي كه س
- احمد يوسف داود

مختارات



منذ سنوات والكاتب الكولومبي الشهير غابرييل غارسيا ماركيز ينشر في عدد من الصحف الأميركية اللاتينية والاسبانية مقالاً اسبوعياً يشد اهتمام القراء بطرافته ورشاقه اسلوبه وجاذبيته، مما جعل دور النشر تجمع تلك المقالات في عدة مجلدات - أربع مجلدات حتى عام ١٩٨٤ - .
وقد اخترنا مجموعة من تلك المقالات تُظهر بوضوح ان ما يكتبه ماركيز ليس مجرد عمود في صحيفة، وانما هو نثر فني يؤكد فيه كاتبه أنه صحفي كبير قبل أن يكون روائياً كبيراً.

الناشر

To: www.al-mostafa.com